القاهرة كما رآها ابن بطوطه (*)

دكتـور

على أحمد الطايش (**)

كانت رحلات المغاربة إلى المشرق بصفة عامة أكثر من رحلات المشارقة إلى المغرب فى العصور الوسطى (١) . ويرجع ذلك إلى سببين :

السبب الأول : دينى ، وهو تأدية فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة . لذا قام الرحالة بتسجيل كل ما يشاهدونه فى رحلاتهم عن البلاد التى يمرون بها ، ومن بينها مصر ، التى تعتبر أهم محطة من محطات طريق الحج ، ويحرصون على زيارة معالمها الإسلامية ، والإلتقاء بأئمتها وعلمائها ، وليس بالأراضى المقدسة فحسب (٢) .

وهذا يتضح فى رحلة إبن بطوطه فقد كان دافعه الرئيس هو الحج ، كما ذكر فى بادية رحلته : « وكان خروجى من طنجة مسقط رأسى فى يوم الخميس الثانى من شهر الله

(**) مدرس الآثار الإسلامية بقسم الآثار الإسلامية – بكلية الآثار – جامعة القاهرة .

بحث القى فى ندوة « الرحلة والرحلة فى العصور الوسطى » بقسم التاريخ بكلية الآداب – جامعة المنيا فى الفترة من ٣٠ اكتوبر – ١ نوفمبر ١٩٩٣ م .

(*) إبن بطوطة هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى الطنجى ، وكنيته أبو عبد الله ولقبه شمس الدين ، ولد فى طنجه فى ١٧ رجب سنة ٧٠٣ رجب سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م وأقام بها حتى سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م ، ثم خرج منها لأداء فريضة الحج عن طريق مصر ، ثم اتسعت دائرة أغراضه ورحلاته ، فقام بثلاث رحلات جاب فيها أكثر ما عرف فى زمانة من بلاد العالم (خريطة ١) الإسلامى ، واستغرقت ثمان وعشرين سنة من حياته ، ثم رجع إلى بلاده وتوفى سنة ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م .

(١) عن هؤلاء الرحالة المغاربة والمشارقة أنظر على سبيل المثال لا الحصر :

زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى . القاهرة ١٩٤٥ م . ،

كراتشوفيسكي ، إغنا طيوس نوليا نوفيتس : تاريخ الأدب الجغرافى العربى . جزءان . ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، مراجعة ايغور يليايف . القاهرة ١٩٨٦ م . ،

احمد رمضان : الرحلة والرحالة المسلمون . جده – دار البيان (د . ت) . ،

نقولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب . الطبعة الثالثة . بيروت ١٩٨٢ م .

(٢) **جيلان عباس** : آثار مصر القديمة فى كتابات الرحالة العرب والأجانب . القاهرة ١٩٩٢ . ص ٣٢ – ٣٣

رجب الفردى عام خمسة وعشرين وسبعمائه معتمدا حج بيت الله وزيارة قبر الرسول ، عليه أفضل الصلاة والسلام .. » ، « وسنى يومئذ ثنتان وعشرون سنة » [١] . كما أنه كان حريصا فى مصر وأثناء رحلته فى بلاد الدلتا والصعيد أن يلتقى بالعباد والزُهّاد وأصحاب الكرامات ، فقد كان يقصد من يسمع به من أولياء الله فى بلادهم ، ويوجه رحلته على هذا الأساس لا على أساس الجغرافية ، وهذا يؤكد أن رحلته كانت رحلة دينية .

والسبب الثانى : يكمن فى ارتياد مراكز العلم فى بلاد المشرق الإسلامى للإتصال بكبار العلماء والنقل عنهم ، وبخاصة مصر التى فتحت ذراعيها واسعة للمغاربة من طلبة العلم فى أعظم مؤسسة تعليمية مصرية ، وهى الأزهر الشريف ، الذى خصص لهم رواقا اشتهر بإسم رواق المغاربة [٢] . وإن كان إبن بطوطة لم يقم بزيارة هذا الجامع ، لأنه كما يتضح من خلال رحلته أن إقامته بالقاهرة كانت سريعة ، وكانت مشاهداته قليلة عنها ، ولكنه أفاض فى مشاهداته منذ مغادرته القاهرة إلى الصعيد فى طريقة إلى قوص ليصل الحجاز عن طريق ميناء عيذاب ، فكان حريصا فى كل بلد يمر فيها على مقابلة شيوخها وعلمائها وقضاتها (خريطة ٢ - ٣) .

وبالإضافة إلى السببين السابقين كان هناك سبب آخر دفع إبن بطوطة إلى الرحلة وهو الشوق إلى رؤية الناس والدنيا على الرغم أنه يقول - كما سبق القول - أن دافعه للرحلة هو الحج ، وسنلاحظ ذلك على طول رحلته [٣] .

وأول من فكر فى تسجيل يوميات على مشاهداته وإحاسيسه فى المشرق أثناء رحلة الحج من الرحالة المغاربة المسلمين فى العصور الوسطى هو الرحالة إبن جبير الأندلسى (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) [٤] ، ثم أصبحت رحلة إبن جبير هى النموذج الذى سعى

---

(١) إبن بطوطة (محمد بن عبد الله) (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) رحلة إبن بطوطة (تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) . دار التراث بيروت ١٩٦٨ م . ص ١٠

(٢) **محمد الكتلاوى** : نصوص الرحالة المغاربة فى خدمة الآثار (ملخص بحث فى كتاب العلاقات المصرية المغربية . الندوة الثانية . القاهرة ٢٥ - ٢٧ يناير ١٩٩٠) . وزارة الثقافة . القاهرة ١٩٩٢) . ص ١٢٢ - ١٢٣

(٣) **حسين مؤنس** : إبن بطوطة ورحلاته (تحقيق ودراسة وتحليل) . القاهرة ١٩٨٠ م . ص ١٨

(٤) إبن جبير (محمد بن أحمد) (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) : رحلة إبن جبير . بيروت ١٩٦٤ م .

مواطنوه من المغاربة إلى تقليده والسير على منواله ، حتى أصبح هذا النوع من كتب الرحلة أشبه بالاحتكار لهم [١] .

ويعتبر الرحالة المغربى إبن بطوطة أعظم الرحالة المسلمين فى العصور الوسطى ، وأوفرهم نشاطا واستيعابا للأخبار ، ويعتبر بحق شيخ الرحالة العرب ، وسيد الرحالين إطلاقا فى عصره ، أى فى القرن ٨ هـ / ١٤ م ، وصدق كاتب رحلته إبن جزى فى خاتمة كتابه « ولا يخفى على ذى عقل أن هذا الشيخ هو رحال العصر ، ومن قال رحال هذه الملة لم يبعد » [٢] .

وقد قام الرحالة إبن بطوطة بثلاث رحلات واسعة النطاق أستغرقت ثمان وعشرين سنة من حياته (٧٢٥ - ٧٥٥ هـ / ١٣٢٥ - ١٣٥٤ م) جاب فيها أكثر ما عرف فى زمانه من بلاد العالم الإسلامى [٣] (خريطة ١ - ٣) .

وفى الرحلة الثالثة وصله كتاب من سلطان المغرب وقتذاك وهو السلطان أبو عنان من بنى مرين ، يطلب إليه الحضور إلى مراكش ، فامتثل ووصل فاس سنة ٧٥٤هـ/١٣٥٤م ، وأقام فى حاشيته . وقد أعجب هذا السلطان بما كان إبن بطوطة يقصه من أحاديث أسفاره ورحلاته ، فأمر كاتبه محمد بن جزى الكلبى أن يدون ما يمليه عليه هذا الرحالة . وتولى إبن جزى كاتب السلطان رواية الرحلة وتلخيصها ، وإضافة بعض الأشعار إليها ، وتحقيق بعض أجزائها ، مستعينا بكتب الرحلات المعروفة فى ذلك العصر ولا سيما رحلة إبن جبير والعبدرى ، ثم سماها « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، وفرغ

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد : ملاحظات عن مصر كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة فى القرن ٦ - ٧ هـ / ١٢ - ١٣ م . مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية . المجلد الثامن ١٩٥٤ م ص ٩٥ .ثم بعد حوالى قرن من رحلة إبن جبير قام العبدرى برحلته (٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م) إلى الحجاز ، ثم التجيبى الذى بدأ رحلته سنة ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م ، ثم إبن بطوطة سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م ، ثم البلوى فى سنة ٧٣٦ هـ / ١٣٣٦ م ، وأخيرا القلصادى وبدأ رحلته العلمية سنة ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م هؤلاء رحالة العصور الوسطى .

(٢) إبن بطوطة : الرحلة ص ٦٨١

(٣) أحمد العوامرى ، محمد أحمد جاد المولى : مهذب رحلة إبن بطوطة المسماه تحفة النظار ، فى غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار ، الجزء الأول . القاهرة ١٩٣٨ م ص ف . قام فى خلالهم بزيارة مصر مرتين الأولى سنة ٧٢٥ هـ ، والأخرى سنة ٧٥٠ هـ فى / ١٣٤٩ - ١٣٥٠ م فى طريق عودته إلى المغرب وكان سلطانها فى هذا الوقت كما يقول إبن بطوطة السلطان حسن بن الناصر محمد ثم خلع بعد ذلك وولى أخوه الملك الصالح . إبن بطوطة : الرحلة ص ٦٤١

منها سنة ٧٥٧ هـ / ١٣٥٦ م ، وأنهاها باعتباره أجزل فيها الثناء على السلطان وإبن بطوطة [١] .

وهكذا لم يترك لنا أى رحالة سواء من المسلمين أو من الأوربيين فى العصور الوسطى مثل ذلك التراث الواسع الذى تركه لنا الرحالة المغربى إبن بطوطة عن أوصاف وأحوال البلاد التى زارها ، ويعتبر صاحب الفضل الأول فى إكتشاف بعض البلاد الأفريقية جنوب غرب الصحراء مثل مالى وتنبكتو [٢] .

والملاحظ أن كل من إبن بطوطة والرحالة الإيطالى ماركو بولو قد قاما برحلتيهما فى أزمان متقاربة ، فقد عاش ماركو بولو بين سنتى ٦٥٢ - ٧٢٥ / ١٢٥٤ - ١٣٢٤ م ، وقد بدأ إبن بطوطة رحلته فى سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م بعد سنة ونصف تقريبا من وفاة ماركو بولو فى البندقية فى الثامن من يناير سنة ٧٢٤ / ١٣٢٤ م ، وفى رحلتيهما زارا البلاد نفسها ، وسلكا فى كثير من الأحيان الطريق نفسه ، بالإضافة إلى أن كل منهما أملى مشاهداته على كاتب [٣] ، ولكن أتسمت مشاهدات ابن بطوطة بالصدق وعدم المبالغة ، وأيد هذا ما ورد فى المصادر التاريخية المعاصرة .

وقد أخترت من رحلة الرحالة المغربى المسلم إبن بطوطة مشاهداته وإنطباعاته وأحاسيسه التى سجلها عن القاهرة فى زيارته الأولى ، لتكون موضوع البحث المقدم إلى ندوة قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة المنيا وموضوعها « الرحلة والرحالة فى العصور الوسطى » .

وكانت زيارة الرحالة إبن بطوطة للقاهرة سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م فى العصر المملوكى البحرى أثناء الفترة الثالثة لحكم السلطان الناصر محمد بن قلاوون [٤] ، والذى

---

(١) إبن بطوطة : الرحلة ص ٦٨١ - ٦٨٢

(٢) المصدر نفسه : ص ٦٦٤ .

(٣) ماركوبولو : رحلات ماركوبولو . ترجمة بالإنجليزية ونشر وليم مارسون ، ترجمها إلى العربية عبد العزيز توفيق جاويد . القاهرة ١٩٧٧ م . ص ٩

(٤) هو عاشر سلاطين دولة المماليك البحرية ، تولى وعزل مرتين ثم أعيد إلى الملك للمرة الثالثة فى شهر رمضان سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م ، وظل يحكم حتى سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م ، وجملة أقامته فى الملك عن الفترات الثلاث ثلاث وأربعون سنة وثمانية شهور وتسعة أيام . أنظر :

شمس الدين الشجاعى : تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده . حققه وترجمة إلى الألمانية بربارة فنستر . فيسبادن ١٩٧٨ م . ص ١٠٧ - ١٢٤

أشاد به إبن بطوطة وأمتدحه [١] « وكان سلطان مصر على عهد دخولى إليها الملك الناصر أبو الفتح محمد بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى .. ، وللملك الناصر رحمه الله السيرة الكريمة والفضائل العظيمة ، وكفاه شرفا أنتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين » .

ويمثل عصر الناصر محمد بن قلاوون بالذات أعظم عصور التاريخ المصرى الإسلامى زمن المماليك ، وأكثرها رقيا وأزدهارا واستقرارا [٢] وخاصة فى الداخل ، وقضى عهده الطويل فى الإصلاح والإنشاء والتعمير الأمر الذى جعل المؤرخين ، وأيضا الرحالة المعاصرين ومنهم إبن بطوطة يشيدون بعصره .

وقد وصل الرحالة المغربى إبن بطوطة إلى الإسكندرية فى الأول من جمادى الأولى سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م ، وسافر إلى القاهرة عن طريق دمياط (خريطة ٢) ، فمر على دمنهور ، ومنها إلى أبيار ثم المحلة الكبرى ، ثم إلى دمياط ثم فارسكور ، ثم إلى أشمون الرمان ، ثم إلى سمنود ، ومنها إلى دمياط فالقاهرة وأطلق عليها مصر ، وإن لم يقم بها طويلا ، وكانت مشاهداته لها قليلة ، ثم سافر منها إلى الصعيد فى طريقه إلى قوص ليصل إلى الحجاز (خريطة ٣) عن طريق ميناء عيذاب .

وقد سجل الرحالة إبن بطوطة جميع مشاهداته التى رآها فى كل هذه البلاد ، سواء فى مدن الدلتا بالوجه البحرى ، أو فى مدن الوجه القبلى (الصعيد) ، وساعد على إعطاء صورة كاملة للمجتمع المصرى فى أزهى عصوره فى العصر المملوكى البحرى وهو عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون من حيث : طبقات المجتمع المصرى ، والحياه العامة فى القاهرة والمدن (المنشآت التجارية والأسواق - المواصلات - المنشآت الإجتماعية كالبيمارستان - المتنزهات - القرافة - الأحتفالات بالأعياد الدينية والقومية) ، والنشاط الدينى والعلمى فى مصر (منشآت التصوف - المدارس) .

أولاً : طبقات المجتمع المصرى :

وردت فى رحلة إبن بطوطة شذرات طفيفة جداً عن بعض طبقات المجتمع المصرى التى قسمها المقريزى (توفى ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) إلى سبع فئات [٣] . فمن الفئات التى ذكرها إبن بطوطة .

---

(١) إبن بطوطة : الرحلة ص ٣٨

(٢) عبد الرحمن الرافعى ، سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى - القاهرة ١٩٩٠ م . ص ٤٨٨

(٣) عن هذه الفئات أنظر :
المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) : إغاثة الأمة بكشف الغمة (أو تاريخ المجاعات فى مصر) دار ابن الوليد - سوريا ١٩٥٦ م . ص ٧٣ - ٧٦

المماليك :

وهم الطبقة العسكرية الممتازة التى سيطرت على البلاد وأهلها . وقد تمتع أمراء المماليك فى العصر المملوكى بمكانة كبيرة فى المجتمع المصرى ، ومنزلة رفيعة عند السلاطين ، وبضخامة الثروة [١] . ولقد رأى الرحالة إبن بطوطة أثناء زيارته للقاهرة كيف كان يتنافس الأمراء المماليك فى مصر فى الخيرات وبناء المنشآت الدينية [٢] .

أهل العمامة :

وهم الفئة الثانية فى بناء المجتمع المصرى على عصر سلاطين المماليك ، وعرفوا بإسم المعممين ، وهم من أرباب الوظائف الدينية والقضاة والفقهاء والعلماء . وقد تميزوا بمميزات معينة طوال عصر المماليك منها نفوذهم فى الدولة ، وأحترام السلاطين وأجلالهم لهم ، ويتضح هذا من خلال الرواية التى أوردها إبن بطوطة فى رحلته ، أنه ذكر له فى مصر أن السلطان الناصر محمد قال يوما لجلسائه « إنى لا أخاف من أحد إلا من شمس الدين الحريرى قاضى القضاة الحنفية » [٣] .

وقد ذكر إبن بطوطة القضاة الأربعة على المذاهب الأربعة فى مصر عند وجوده بها ، وذكر أن قاضى القضاه الشافعية أعلاهم منزلة وأكبرهم قدرا ، وإليه ولاية القضاة بمصر وعزلهم [٤] ، ويجلسون على يسار السلطان الناصر محمد عند النظر فى المظالم يومى الإثنين والخميس [٥] .

كما أشار إبن بطوطة إلى ملابس القضاة والعلماء ، فهم يلبسون العمائم الكبار ، وقد شاهد إبن بطوطة عمامة قاضى الإسكندرية ووصفها بقوله : « وكان يتعمم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم لم أر فى مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها ، رأيته يوما قاعدا فى صدر المحراب ، وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب » [٦] . كما ذكر إبن بطوطة أن ملابس العلماء عبارة عن « عباءة صوف خشنة وعمامة صوف سوداء » [٧] .

---

(١) عن هذه الطبقة أنظر : سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك . القاهرة ١٩٦٢ م ص ١١ – ٢٨

(٢) إبن بطوطة : الرحلة ص ٤٠

(٣) نفس المصدر ص ٤٠ – ٤١

(٤) نفس المصدر ص ٤٠

(٥) نفس المصدر ص ٤١

(٦) نفس المصدر ص ١٨

(٧) نفس المصدر ص ٤٢

وكما يتضح من خلال رحلة إبن بطوطة ، أنه لا ينزل بلدا إلا وأوى إلى قاضى المدينة [١] أو إلى زاوية .

العوام :

يطلقون هذا الإسم على جمهور كبير من الباعة والسوقة والسقائين والمكاريين والمعدمين ، والحق بهم الحرافيش وهم المعدمين وأهل الفساد من الدهماء [٢] . وقد أحصى الرحالة إبن بطوطة أثناء تواجده بمصر عدد السقائين على الجمال بإثنى عشر ألف سقاء ، وأن بها ثلاثين ألف مكار [٣] . كما وصف الحرافيش فى مصر بأنهم « طائفة كبيرة أهل صلابه وجوه وزعارة » [٤] .

كما أضاف إبن بطوطة عن الحرافيش حكاية يفهم منها أنهم عدوا أصحاب سطوة تخشاها السلاطين فى العصر المملوكى فى القرن ٨ هـ / ١٤ م ، وهى أن السلطان الناصر محمد سجن أحد أمرائه الذى كان له إحسان عظيم للحرافيش « فإجتمع من الحرافيش آلاف ووقفوا بأسفل القلعة ، ونادوا بلسان واحد : يا أعرج النحس ، يعنون الملك الناصر ، إخرجه ، فأخرجه من محبسه » [٥] . كما أوضح إبن بطوطة أن أمراء المماليك خصصوا جزء من ثروتهم للإحسان على اليتامى والحرافيش [٦] .

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة ص ٢٧ ، ٤٨

(٢) **سعيد عاشور** : المرجع السابق ص ٣٧

وكلمة « حرافيش » لغويا « واحرنفشت الرجال إذا صارع بعضهم بعضا ، وأحرنفشت الديك تهيأ للقتال » .

وهم فئة من الطبقات فى الدنيا – كثيرة العدد – استغلت تشجيع المماليك للتيار الصوفى فإنخرطوا فى هذا التيار طمعا فى رزق ثابت ، بعد أن كانوا يتكسبون من مصاحبة الجيوش عند الجهاد فى العصر الأيوبى . عن هذه الفئة انظر :

محمد رجب النجار : حكايات الشطار والعيارين فى التراث العربى . عالم المعرفة (٤٥) . الكويت سنة ١٩٨١ م . ص ١٨٠ – ١٨٨

(٣) إبن بطوطة الرحلة ص ٣٩

(٤) نفس المصدر ص ٣٩

(٥) نفس المصدر ص ٣٩ – ٤٠

(٦) **سعيد عاشور** : المجتمع ص ٣٩

أهل الذمة :

وهم أقلية ضخمة ذات أهمية فى المجتمع المصرى نصفهم من المسيحيين والنصف الآخرمن اليهود [١] . وقد تعرضوا فى بعض الأحيان لبعض الاضطهاد عصر سلاطين المماليك مثل الطرد من مباشرة الدواوين وحرمانهم من مباشرة الأفراد ، والتضييق عليهم فى بعض مظاهر الحياة كتصغير عمائهم وتلوينها باللون الأزرق للمسيحيين ، ومنعهم من ركوب الخيل والسماح لهم بركوب الحمير . وكان معظم أهل الذمة يدافعوا هذا الاضطهاد إما عن طريق بذل الأموال لأهل الدولة ، أو إظهار الإسلام حتى يستردوا مركزهم الأدبى فى المجتمع [٢] . وكان بعض هؤلاء الذين أعتنقوا الإسلام حسن إسلامهم ، كما أورد ذلك إبن بطوطة فى رحلته « ومنهم ناظر جيش الملك الناصر ، كاتبه القاضى فخر الدين القبطى ، وكان نصرانيا من القبط ، فأسلم وأحسن إسلامه » [٣] .

ثانيا : الحياة العامة فى القاهرة والمدن :

خص الرحالة إبن بطوطة فى القرن ٨ هـ / ١٤ م –شأنه فى ذلك شأن رحالة العصور الوسطى – القاهرة بجزءكبير من مشاهداتهم والإشادة بها ، فقال عنها « هى أم البلاد المتناهية ، فى كثرة العمارة المتباهية فى الحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط الضعيف والقادر ، بها من شئت من عالم وجاهل ، وجاد وهازل ، تموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها .. » [٤] .

ويتضح من نص إبن بطوطه أنه لا يوجد مدينة فى العالم تماثل مدينة القاهرة من حيث إتساعها وعظمتها وكثرة مبانيها وسكانها ، ولم يقتصر إعجاب إبن بطوطة بمدينة القاهرة ولكن أشاد بمعظم مدنها مثل مدينة الإسكندرية ، فقال عنها : « مدينة الإسكندرية ، حرسها الله ، وهى الثغر المحروس والقصر المأنوس ، العجيبة الشأن الأصيلة البنيان ، بها من شئت من تحسين وتحصين ، ومأثر دينا ودين ، وجمعت بين الفخامة والأحكام مبانيها ، فهى الفريدة فى تجلى سناها . . » ثم ذكر أسوارها وأبوابها وأيضا

---

(١) **سعيد عاشور :** المرجع السابق ص ٤٠

(٢) **قاسم عبده قاسم :** أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى . القاهرة ط ٢ سنة ١٩٧٩ م . ص ٧٤ – ٨٤

(٣) إبن بطوطة : الرحلة ص ٤٠

(٤) نفس المصدر ص ٣١ – ٣٢

منارها وعمود السوارى [١] . ثم زار الإسكندرية مرة ثانية فى سنة ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م وشاهد ماطرأ على منار الإسكندرية من خراب « قد أستولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه » ، ويشير إلى السلطان الملك الناصر محمد كان قد شرع فى بناء منار مثله بإزائه فعاقه الموت عن إتمامه [٢] . كما أشاد بمدن الوجهين البحرى [٣] والقبلى [٤] التى مر بها ، وأنبهر بها حيث أنها مدنا واسعة كبيرة ، مزدحمة بالسكان ، وبكافة المنشآت الدينية والإجتماعية .

المنشآت التجارية :

جنى سلاطين المماليك من التجارة الخارجية ثروة هائلة ، وأزدهرت الحالة الإقتصادية فى مصر ، نتيجة لإهتمام سلاطين المماليك بتنشيط طرق التجارة وتأمين مسالكها ، وتأمين التجار الأجانب ، وإنشاء المؤسسات اللازمة للتجارة ، والتجار كالفنادق والخانات والوكالات والقياسر [٥] ، وأنعكس هذا أيضا على الأسواق فكانت دائمة ومزدهره ، وتموج بالحركة والنشاط .

وقد أورد إبن بطوطة حكاية فى رحلته وهو بالإسكندرية ، يستشف من خلالها مدى حرص السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وأيضا والى الإسكندرية على تأمين وسلامة تجار الأفرنج ، فهم مصدر دخل عظيم للدولة ، فقد دفعت مشاجرة بين تجار الإفرنج وأهل

---

(١) إبن بطوطة : الرحلة ص ٥١ – ١٧

وعن هذه المنشآت أنظر :

السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى . الإسكندرية ١٩٨٢ م . ص ٢٥ – ٢٦ ، ٢٨ – ٣٢ ، ١٥٩ – ١٦٠ ، ٢١٣ – ٢١٤ ، ٢٤٣ ، ٢٨٩ – ٢٩٢ ، ٤٣٥ – ٤٥٣

(٢) إبن بطوطة : الرحلة ص ١٦

(٣) نفس المصدر : ص ٢٤ – ٣١

(٤) نفس المصدر : ص ٤٣ – ٤٨

(٥) لم يفرق معظم مؤرخى العصور الوسطى العرب بين الوكالة والخان والقيسارية والفندق ، إذ لم يجدوا فروقا واضحة .

نعيم زكي فهمي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب . القاهرة ١٩٧٣م .ص ٢٨٦.

الإسكندرية [١] ، فتحيز الوالى للتجار وعاقب المتشاجرين وبعضهم من أهل البلد . فثارت ثائرة الناس . وأرسل السلطان الناصر محمد رسولا من القاهرة فتحيز هو الآخر للأفرنجة ، واسمه طوغان ، ويصفه إبن بطوطة بأنه كان جباراً قاسى القلب يقال أنه كان يعبد الشمس ، فكان هذا الرجل أقسى من الوالى على أهل البلد ، فحبس كبارهم وأغرمهم الأموال وقتل ستة وثلاثين منهم ، وقطع رجل قطعتين وصلبهم صفين ، وكان ذلك يوم جمعة .

وقد لاحظ إبن بطوطة كثرة المنشآت التجارية الخاصة بالتجار مثل الفنادق والوكالات والخانات فى مختلف المدن المصرية التى زارها ، واعطى إشارة بسيطة على الوحدات المعمارية المكونة منها المنشآت التجارية فى العصر المملوكى [٢] « .. وبكل منها فندق ، وهم يسمونه الخان ، ينزله المسافرون بدوابهم ، وبخارج كل خان ساقية للسبيل وحانوت يشترى منه المسافر ما يحتاج إليه لنفسه ودابته » [٣] . ويستشف من كلام إبن بطوطة أن الخان فى المشرق الإسلامى يعادل كلمة الفندق فى المغرب الإسلامى .

أما بالنسبة لأسواق القاهرة ومدن الوجهين البحرى والقبلى ، فكانت منتعشة ، وتكتظ بأصناف البضائع ، وهذا ما نستطيع أن نستشفه من خلال ما ذكره إبن بطوطة فى رحلته أن المسافر عن طريق نهر النيل لا يحتاج إلى أن يحمل معه زادا « لأنه مهما أراد النزول بالشاطىء نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك ، والأسواق متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مصر ومن مصر إلى مدينة أسوان من الصعيد » [٤] .

---

(١) **إبن بطوطة** : الرحة ص ٢٣ كانت الإسكندرية تزخر بعدد كبير من هذه الفنادق بسبب نشاطها التجارى الكبير ، وكثير من هذه الفنادق خاصا تجار الأفرنج ، فلقد حرصت الدول التجارية التى كان يتعامل معها المماليك على إقامة فنادق لها فى الإسكندرية منذ العصر الأيوبى ، أنظر :

السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٥٠٥ – ٥٠٩

(٢) تشتمل هذه الوحدات على الحوانيت ، الفناء الأوسط ، الحواصل لخزن البضائع وعرضها ، بير ماء وحوض سبيل ، الطباق(الأروقة) لسكنى النزلاء ، دار الدواب (الزريبة) . عن هذه الوحدات أنظر .

رفعت موسى : الوكالات والبيوت الإسلامية فى القاهرة العثمانية . القاهرة ١٩٩٣ م . ص ٦٥ – ٦٩

(٣) **إبن بطوطة** : الرحلة ص ٥٠

(٤) إبن بطوطة : الرحلة ص ٣١ . وعن الأسواق فى العصر المملوكى أنظر :

المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) (٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) : المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار . جزءان . بولاق . ١٢٧٠ هـ جـ ٢ ص ٩٤ – ١٠٦ ،

Raymond (A.) & Wiet (G.) : Les Marchés du Caire (Traduction Antée du Texte de Maqrizi) . Institute Français d' Archeologie Oriental da Caire, 1979

المواصلات :

وجد بمصر فى العصر المملوكى وسيلتان هامتان للمواصلات كما أشار إليهما إبن بطوطة فى رحلته : الأولى : وهى الحمير ، وهى الوسيلة الوحيدة التى يستخدمها الناس فى إنتقالهم داخل المدن أو خارجها ، وفى المدن المصرية كانت توجد مواقف خاصة بحمير الأجرة التى عرف أصحابها باسمالمكارية [١] . وقد ذكر إبن دقماق [٢] والمقريزى [٣] عدة أماكن خصصت للمكارية فى الفسطاط والقاهرة . وقد قدر إبن بطوطة – كما سبق القول – عدد المكارية فى القاهرة وحدها فى القرن ٨ هـ / ١٤ م بحوالى ثلاثين ألف مكاريا .

أما الوسيلة الثانية فهى المراكب ، والتى تربط بين البلاد . والواقع أن نهر النيل فى عصر سلاطين المماليك ، كان وسيلة مواصلات طبيعية لا نظير لها فى الربط بين بلاد الصعيد وبلاد الوجه البحرى . وكان محط إعجاب واشارة جميع رحالة العصور الوسطى الذين زاروا مصر ، ومن بينهم الرحالة إبن بطوطة [٤] .

وقد أحصى إبن بطوطة عدد المراكب التى تسير فى النيل فقال « بنهر النيل ستة وثلاثين ألف مركب للسلطان والرعية ، تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدره إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات [٥] » .

وعلى جانبى الدلتا فوق مياه فرعى النيل ، كانت السفن تجرى بالآلاف طوال العام محملة بالبضائع والمواد الغذائية المصدرة إلى القاهرة سوق الأستهلاك الرئيسى [٦] .

فيذكر الرحالة إبن بطوطة أن دمياط أشتهرت بزراعة شجر الموز ويصدر إلى مصر عن طريق المراكب [٧] . كما أشتهرت أيضا مدينة منفلوط بأسيوط –كما يذكر إبن بطوطة –

---

(١) قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الإجتماعى عصر سلاطين المماليك . الطبعة الثانية القاهرة ١٩٨٣ م . ص ١٣١

(٢) إبن دقماق (صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى) (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م) : الأنتصار لواسطة عقد الأمصار . جـ ٤ – ٥ القسم الأول والثانى . طبع بولاق ١٣٠٩ هـ . حـ ٤ ص ٢٧

(٣) المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ٢٩

(٤) إبن بطوطة : الرحلة ص ٣٦ – ٣٧

(٥) نفس المصدر ص ٣٢

(٦) قاسم عبده قاسم : النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك . القاهرة ١٩٧٨ م ص ٨١

(٧) إبن بطوطة : الرحلة ص ٢٨

بصناعة النيدا وهى شبه العسل يستخرجونه من القمح ويباع فى أسواق مصر [١] (خريطة ٣) . كما أشار إبن بطوطة إلى شهرة الصعيد بزراعة الكتان ، ومن أشهر مراكزها مدينة بوش ودلاص بمديرية بنى سويف ، وكان يصدر عن طريق نهر النيل إلى مصر ، وإلى أفريقيا [٢] .

وكانت المراكب المحملة بالبضائع تسير فى حركة مستمرة طوال العام تحمل البضائع المصدرة إلى القاهرة وسائر أنحاء البلاد [٣] ، وكانت ضفتا النهر عامرتين بالمدن والقرى والأسواق نتيجة لحركة الملاحة النيلية الدائبة ، فقد أشار إبن بطوطة أنه ركب النيل من مدينة سمنود بالمحلة الكبرى (خريطة ٢) متجها إلى مصر « ما بين مداين وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض » [٤] ولم يكن المسافر فى النهر يحتاج إلى أن يأخذ معه زاد (كما سبق القول) .

وكان لنهر النيل موانىء - لا سيما ما يرتبط بالتجارة الخارجية - كما يتضح من مشاهدات إبن بطوطة فى المدن والقرى التى كانت على شاطىء النيل فى القرن ٨ هـ / ١٤ م ، أن بعضها له موانى أو مرسى للمركب والسفن على الأقل مثل مدينة دمياط ، حيث يعتبر مينائها همزة الوصل بين نهر النيل والبحر المتوسط ، وقد وصفها إبن بطوطة بقوله « .. ومدينة دمياط على شاطىء النيل وأهل الدور الموالية يستقون منه الماء بالدلاء ، وكثير من دورها دركات ينزل فيها إلى النيل » [٥] .

كما ذكر إبن بطوطة أنه سافر إلى مدينة أشمون الرمان ، ونسبت إلى الرمان لكثرته (خريطة ٢) بها منها يحمل إلى مصر ، وقال عنها « مدينة عتيقة كبيرة على خليج من خليج النيل ، ولها قنطره خشب ترسو المراكب عندها ، فإذا كان العصر رفعت تلك الخشب ، وجازت المراكب صاعدة ومنحدرة [٦] . كما قال عن مدينة سمنود بالمحلة أنها « على شاطىء النيل كثيرة المراكب » [٧]

(١) إبن بطوطة : الرحلة ص ٤٦

(٢) نفس المصدر ص ٤٣

(٣) قاسم عبده قاسم : النيل ص ٨١

(٤) إبن بطوطة : الرحلة ص ٣١

(٥) نفس المصدر ص ٢٨

(٦) نفس المصدر ص ٣١

(٧) نفس المصدر ص ٣١

المنشآت الإجتماعية :

أشاد إبن بطوطة فى رحلته إلى أهم نوع من المنشآت الإجتماعية التى توجد بمصر وهو بيما رستان قلاوون (لوحة١ شكل ١ - ٣) .

ويعتبر بيمارستان السلطان المنصور قلاوون (البيمارستان المنصورى) بالقاهرة أعظم البيمارستانات فى تاريخ مصر الإسلامية [١] . وتوضح لنا وثيقة الوقف الخاصة به ، أنه لم يقتصر فقط على معالجة المرضى ، بل كان يتم تدريس الطب به ، ويشبه هذا ما يتم الآن فى العصر الحديث الحاق كلية الطب المستشفيات حيث تتوفر الدراسة العلمية ، وممارسة الطب تحت أيدى الأساتذة (أى مستشفى جامعى حالياً) ، فقد نصت وثيقة الوقف على مصالح البيمارستان المنصورى على تعيين شيخ للاشتغال بالطب يكون من بين أطباء يكون من بين أطباء البيمارستان ، وخصص له الواقف مكانا محددا لالقاء دروس الطب على طلبته [٢] .

ويقع هذا البيمارستان بشارع المعز لدين الله بمنطقة بين القصرين ضمن مجموعة السلطان المنصور قلاوون (٦٨٣ - ٦٨٤ هـ / ١٢٨٤ - ٨٥ م أثر ٤٣) - التى أقيمت على قاعة ست الملك إحدى قاعات القصر الفاطمى الغربى الصغير ، والتى عرفت فى العصر الأيوبى بإسم الدار القطبية ثم أشتراها بعد ذلك المنصور قلاوون - وكان أول وحدة معمارية بنيت فى هذه المجموعة ، وقد شرع شاد العمارة الأمير سنجر الشجاعى فى بنائه كما ذكر إبن عبد الظاهر [٣] والمقريزى [٤] فى مستهل شهر ربيع الآخر سنة ٦٨٣ هـ /

---

(١) البيمارستان كلمة فارسية مركبة من كلمتين (بيمار) وتعنى مريض ، و(ستان) وتعنى مكان فهى دار المرضى أو مستشفى ، ثم إختصرت فى الأستعمال فصارت مارستان .

أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات فى الإسلام . دار الرائد بيروت ١٩٨١ م . ص ٤

وأول بيمارستان أنشىء بمصر كان فى الفسطاط فى العصر الأموى فى دار إبن زبيد بزقاق القناديل . أنظر المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٠٦

(٢) أنظر نص هذه الوثيقة فى ابن حبيب (الحسن بن عمر) (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧م) : تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه . جـ١ تحقيق محمد محمد أمين ص ٣٢٩ - ٣٧٦ . القاهرة ١٩٧٦ م .

(٣) إبن عبد الظاهر (محيى الدين) : تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور . حققة مراد كامل . وزارة الثقافة القاهرة ١٩٦١ م ص ٥٦

(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٦

١٢٨٤ م ، وكان الفراغ من بنائه كما ذكر إبن عبد الظاهر « وما أهل شهر رمضان من هذه السنة (٦٨٣ هـ) حتى فرغ المارستان بأواوينه الأربعة ومياهه الدافقة من كل صوب وشاذرواناته ورخامه وأنهاره وبستانه » [١] . وكان البيمارستان هو السبب الرئيسى فى بناء هذه المجموعة وقد أورد لنا المؤرخون ثلاث روايات فى سبب بنائه [٢] .

وكان هذا البيمارستان موضع اهتمام السلاطين فى العصر المملوكى وذلك بالعمارة والإصلاح ، ففى عام ٧٢٦ هـ / ١٣٢٥ م فى عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون أجريت له أول عماره على يد الأمير جمال الدين أقوش ناظر الأوقاف عليه ، وكان جملة ما صرف على العمارة تقارب ستين ألف دينار [٣] .

وقد أدهش هذا البيمارستان جميع المؤرخين والرحالة فى العصور الوسطى ومن بينهم إبن بطوطة فقال عنه « وأما المارستان الذى بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون فعجز الواصف عن محاسنه وقد أعد فيه من المرافق والأدوية مالايحصى ويذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم » [٤] . أى أن النفقة عليه يوميا ألف دينار .

وقد أورد كل من النويرى [٥] والمقريزى [٦] وصفا معماريا كاملا لهذا البيمارستان يتطابق مع ما جاء فى وثيقة الوقف الخاصة به [٧] (شكل ١ ، ٣) .

---

(١) إبن عبد الظاهر : المصدر السابق ص ٥٦

(٢) نفس المصدر ص ٥٥ – ٥٦ ، المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٠٧

إبن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد الحنفى) (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م) : بدائع الزهور فى وقائع الدهور خمسة أجزاء . ط٢ تحقيق محمد مصطفى . القاهرة ١٩٨٢ – ١٩٨٤ م . ط ص ١١٦

(٣) على إبراهيم حسن : دراسات فى تاريخ المماليك البحرية (فى عصر الناصر محمد بوجه خاص) . القاهرة ١٩٤٤ م . ص ٩٥ – ٩٦

(٤) إبن بطوطة : الرحلة ص ٣٣

(٥) النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) (ت ٧٣٢ هـ ١٣٣٢١ م) : نهاية الأرب فى فنون الأدب . من جـ ١ – ٢١ طبع القاهرة ١٩٢٣ – ١٩٧٦ م والباقى مخطوط . جـ ٢٩ ورقه ٢٩

(٦) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٠٦

(٧) أنظر الوصف المعمارى الكامل لهذا البيمارستان كما ورد فى وثيقة الوقف فى :

محمد سيف النصر أبو الفتوح : منشآت الرعاية الإجتماعية بالقاهرة حتى نهاية عصر المماليك . رسالة دكتوراه غير منشورة) كلية الآداب بسوهاج جامعة أسيوط ١٩٨٠ م . ص ٨١ – ١٠٢ ، ١٤٤ – ١٥٤

فيذكر النويرى « وكان ذرع هذا الدار – القطبية – عشرة آلاف وستماية ذراع ، وكان الشروع فى بنائها مارستانا فى أول ربيع الآخر سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) فابقى القاعة على حالها وعملها مارستانا ، وهى ذات أيوانات أربعة بكل ايوان شاذروان وبدورقاعتها فسقية يصير إليها الماء من الشاذروانات » .

ويذكر المقريزى « وكان الشروع فى بنائها مارستانا أول ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستماية .. الدار القطبية وعوض أهلها عنها قصر الزمرد وولى الأمير علم الدين سنجر الشجاعى أمر عمارته فأبقى القاعة على حالها وعملها مارستانا وهى ذات ايوانات أربعة بكل أيوان شاذروان وبدور قاعتها فسقية يصير إليها الماء . » ..

أما ما جاء فى وثيقة الوقف (سطور ١٥٧ – ١٦٨) وبأقصى الدهليز باب كبير معقود حنية بالطوب الاجر والجبس بعتبه / سفلى صوانا يغلق عليه زوج أدراف مدهون مذهب / بحشوات منقوشة مذهبة وصفائح حديدية مذهبة ويدخل منه إلى / قاعة كبرى وهى البيمارستان المبارك يحوى أربعة أواوين متقابلة / مسقفة نقيا بقباب واخياط مغرقة بالذهب واللازورد والأصباغ / المختلفة وأربع قاعات متفرقة ومطبخ وبيوت برسم الحواصل / وفسقية كبيرة بديعة الشكل تعلوها قبة محمولة على أربع عمد رخام أبيض مكملة / القواعد الرخام المذهبة وأربعة أركان حجر نحيت مرخم ظاهرها / بالرخام الأبيض والأزرق والأحمر والكرندازات المنوعة المجزعة / التى علو صحاف العمد / المذكورة ويأتى ذكر ذلك وتشتمل الدورقاعة على أبواب دايره به عدتها إثنى عشر بابا .. » [1] .

ويتضح من خلال النصوص السابقة أن البيمارستان كان يتكون من قاعة كبيرة تشتمل على أربعة أيوانات ، ويصدر كل إيوان شاذروان يصير ماؤه إلى الفسقية التى تتوسط الدور قاعة ، وقد خصصت الأيوانات لعلاج المرضى بالحميات ، وغطيت الأيوانات باسقف تتكون من قصع (حقاق) خشبية مذهبة وملونة ، أما القاعات الأربع الرئيسية فقد جعلت أحداها للرمد ، والثانية للجرحى ، والثالثة لمن أفرط به الإسهال ، والرابعة للنساء .

أما الوصف المعمارى الحالى للبيمارستان ، فيقع المدخل الرئيسى للبيمارستان بصدر الدهليز الرئيسى للمجموعة والفاصل بين القبة والمدرسة ، ويؤدى إلى دركاه مربعة بها

---

(١) محمد سيف النصر : المرجع السابق ص ١٤٧ – ١٤٨

بابان : الأيمن يؤدى إلى جناح المجانين من الرجال والمجنونات من النساء ، والأيسر يؤدى إلى دهليز يفضى إلى البيمارستان . (شكل ١) .

وللأسف الشديد أندثرت معظم أجزاء هذا البيمارستان ، ولم يعد باقيا منه سوى ثلاثة أيوانات فقط هم [١] : ايوانان متقابلان متشابهان ، الأيوان الجنوبى الشرقى والأيوان الشمالى الغربى ، وبصدر كل منهما دخلة شاذروان . والأيوان الثالث فهو الأيوان الشمالى الشرقى ويشرف على الدور قاعة (الصحن) ببائكة ثلاثية العقود . أما الأيوان الرابع وهو الجنوبى الغربى – فكان مشابها للمقابل له – فقد أندثر تماما وذلك ببناء منزل مجاور له ، وبشق الطريق المؤدى إلى مستشفى رمد قلاوون حالياً التى انشأتها وزارة الأوقاف سنة ١٩١٥ م . (شكل ٣) .

المتنزهات بالقاهرة :

لا شك أن عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون يعتبر من أهم فترات التاريخ المملوكى وأكثرها استقرارا وازدهارا ، وأنعكس هذا على حياة المصريين اليومية من خلال أعيادهم الدينية والقومية ، أو من خلال أهتمامهم بجوانب التسلية والترفيه فى حياتهم بالخروج إلى المتنزهات ، مما أضفت روح المرح على جميع طبقات المجتمع المصرى ، مما دفع الرحالة إبن بطوطة يصف أهل مصر فى رحلته أيام الناصر محمد بأنهم « ذوو طرب وسرورو لهو » [٢] .

ولم يقتصر روح المرح على طبقة دون أخرى من طبقات المجتمع المصرى ، بل تميز بها أيضا الفقهاء والعلماء فى عصر الناصر محمد ، وهذا يتضح من خلال ما ذكره إبن بطوطة فى رحلته أن أحد كبار علماء مصر وهو قوام الدين الكرمانى أنه « من عادته أن يذهب بعض صلاة العصر إلى مواضع الفرج والنزهات منفردا على أصحابه » [٣] .

ومن أشهر أماكن المتنزهات والتى لفتت أنظار إبن بطوطة فى رحلته هى جزيرة الروضة ، وهى جزيرة فى وسط النيل بين الفسطاط والجيزة ، وبينها وبين الجيزة جسر

---

(١) Creswell (K. A. C.) : The Muslim Architecture of Egypt. II. Ayyubids and Early Bahrite Mamluks. A. D. 1171 - 1326. Oxford, 1959 . pls. 62 - 63

(٢) إبن بطوطة : الرحلة ص ٣٢

(٣) نفس المصدر : ص ٤٢

من خشب [١] ، وقد أصبحت منذ أيام السلطان الظاهر بيبرس (القرن ٧ هـ / ١٣ م) « صارت فرجا ومتنزهات وقصورا ودورا وبساتين » [٢] ، وقد أستمرت أيضا فى القرن ٨ هـ / ١٤ م حيث أشاد إبن بطوطة بها ، فقال عنها « وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة ، وهو مكان النزهة والتفرج ، وبه البساتين الكثيرة الحسنة » [٣] (خريطة ٤) .

كما أعتبر الناس القرافة فى العصر المملوكى مكانا للهو والتفريج عن النفس فخرجوا إليها فى الليالى المقمرة وليالى المواسم والأعياد وليالى الجمع من كل أسبوع ، ومعهم الريحان والزهور كالياسمين وغيره [٤] . وقد شاهد إبن بطوطة ذلك أثناء رحلته للقاهرة فى القرن ٨ هـ / ١٤ م فيقول عنها « ويخرجون الناس فى كل ليلة جمعة إلى المبيت بها باولادهم ، ونسائهم ويطوفون على الأسواق بصنوف المأكل » [٥] .

هذا ولم يقف أمر زيارة القرافة عند حد المصريين فقط [٦] بل شاركهم فى ذلك الرحالة فى العصور الوسطى الذين جاءوا إلى مصر ، ومن بينهم الرحالة إبن بطوطة ، فقد قام

---

(١) إبن دقماق : المصدر السابق ص ١٠٩ ، المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٧٧ – ١٨٢ ، إبن إياس ، المصدر السابق جـ ١ ص ٢٧١

عبد الرحمن زكى : القاهرة من جوهر القائد إلى الجبرتى المؤرخ . القاهرة ١٩٦٦ م ص ٩٨ – ٩٩

(٢) إبن دقماق : المصدر السابق جـ ٤ ص ١١٠

(٣) إبن بطوطة : الرحلة ص ٣٢

(٤) سعيد عاشور : المرجع السابق ص ١١١

(٥) إبن بطوطة : الرحلة ص ٣٥

(٦) كتب بعض المؤرخين كتبا خاصة بتلك المزارات تبين فضل الزيارة ، وتقسيم القرافة إلى مناطق لتسهيل الزيارة منهم على سبيل المثال لا الحصر :

– إبن الزيات (شمس الدين محمد) : الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة فى القرافتين الكبرى والصغرى . مصر ١٩٠٧ م .

– إبن الناسخ (الشيخ مجد الدين محمد بن عين الفضلا) (ق ٨ هـ / ١٤ م) : مصباح الدياجى والموت الراجى وكهف اللاجىء مما جمع للإمام التاجى (مخطوط) .

– السخاوى (أبو الحسن نور الدين على بن أحمد بن عمر بن خلف بن محمود السخاوى الحنفى) : تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات . مراجعة محمود ربيع ، حسن قاسم . القاهرة ١٩٣٧ م .

بزيارة القرافة ومزارات الصالحين والعلماء والأولياء ، ودون مشاهداته وانطباعاته على أهم المزارات الشريفة بها وهى :

المشهد الحسينى ، وقال عنه « المشهد المقدس العظيم الشأن حيث رأس الحسين بن على ، عليهما السلام ، وعليه رباط ضخم عجيب البناء على أبوابه حلق الفضة وصفائحها أيضا كذلك [١] (لوحة ٢)

تربة السيدة نفيسة فذكر عنها « وهذه التربة أنيقة البناء مشرقة الضياء عليها رباط معقود » [٢] (لوحة ٣)

تربة الإمام الشافعى ، فقال عنها « وعليها رباط كبير ، ولها جراية ضخمة ، وبها القبة الشهيرة البديعة الأتقان ، العجيبة البنيان ، المتناهية الأحكام ، المفرطة السمو ، وسعتها أزيد من ثلاثين ذراعاً » [٣] (لوحة ٤) .

وتعتبر قبة الإمام الشافعى بحق كما وصفها إبن بطوطة من أجل القباب وأجملها بمصر على الإطلاق . وأول من أعتنى بتربة الإمام الشافعى هو السلطان صلاح الدين

---

(١) تم نقل الرأس الشريف من عسقلان إلى القاهرة فى يوم ٨ جمادى الآخرة سنة ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م ، وحمل فى سرداب إلى قصر الزمرد ، ثم دفن فى قبة المشهد الذى أنشىء خصيصا له سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م .

المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٢٧ . وقد حظى هذا المشهد برعاية وعناية السلاطين والولاه والحكام على مر العصور وإلى أيامنا هذه ، ولم يتبق من عمارته القديمة سوى الباب الأخضر ويعلوه مئذنة حافلة بالزخارف ذات التأثيرات الأندلسية وترجع إلى سنة ٦٣٣ هـ / ١٣٢٥ م ، وعليها لوحتان تذكاريتان . أنظر :

حسن عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٨٤ ، . Creswell : op. cit. pl . 29 , / 23 A

(٢) أول من أعتنى بقبرها بعد وفاتها سنة ٢٠٤ هـ وبناه عبيد الله من السرى بن الحكم أمير مصر ، ثم جدد القبة الخليفة الحافظ لدين الله سنة ٥٣٢ هـ ، ثم أمر الناصر محمد بن قلاون سنة ٧١٤ هـ بإنشاء الجامع بالمشهد النفيسى ، ويذكر الجبرتى فى حوادث سنة ١١٧٣ هـ أن الأمير عبد الرحمن كتخدا عمر المشهد النفيسى ومسجده وبنى الضريح على هذه الهيئة . أنظر :

المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٤٠ – ٤٤٢ ،

على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة . الجزء الخامس القاهرة ١٩٨٦ م ص ٣٠٣ – ٣١٢

(٣) إبن بطوطة : الرحلة ص ٣٥

الأيوبى ، وكان ذلك فى سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م ، كما عمل تابوتا خشبيا (تركيبة) أعلى قبر الإمام الشافعى ، كما شرع فى بناء المدرسة الصلاحية بجوارها برسم الفقهاء الشافعية ، وكان الفراغ منها فى سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م ، وعرفت بتاج المدارس ، واستقرت هذه المدرسة حتى القرن ٨ هـ / ١٤ م [١] .

وكانت تربة الإمام الشافعى موضع تكريم الزائرين يقصدونها بالزيارة والتبرك بهذا الإمام الشافعى ، ولذا تعتبر من أهم مزارات القرافة ، كما كان يحرص على زيارتها الرحالة المغاربة عند مرورهم بمصر أثناء الحج ، فقد زارها الرحالة إبن جبير بعد الفراغ من بناء المدرسة بخمس سنوات وقال عنها : « مشهد الإمام الشافعى رضى الله عنه ، وهو من المشاهد العظيمة إحتفالا واتساعا وبنى بإزائه مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها لا أوسع مساحة ولا أحفل بناء ويخيل لمن يتطوف فيها أنها بلد مستقل بذاتها .. » [٢] .

وقد قام الملك السلطان الكامل عام ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م بتوسيع هذه المدرسة ونصب بها منبرا ، كما أقام قبة كبيرة فوق الإمام الشافعى لما دفنت أمه بها ، وأنشأ بها خلاوى برسم الصوفية [٣] ، وقد قام بزيارتها إبن بطوطة بعد قرن تقريبا من هذه العمارة ولذا قال « وعليها رباط كبير » [٤] .

أما بالنسبة للوصف المعمارى لهذه القبة ، فهى قبة كبير ضخمة – كما أشاد بها إبن بطوطة – فهى مربعة المسقط يبلغ طول ضلعها من الخارج ٢٠ م ، ويتطابق هذا مع ما ذكره إبن بطوطة أنها « وسعتها أزيد من ثلاثين ذراعا » [٥] (شكل ٤) .

تنقسم واجهات القبة من الخارج إلى قسمين : القسم السفلى هو التربيع السفلى للقبة ، أما القسم الثانى العلوى فهو القبة ، وهى ذات قطاع مدبب ، مشيدة من الخشب

---

(١) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية . جزءان . القاهرة ١٩٤٦ م . ص ١٠٧

(٢) إبن جبير : الرحلة ص ٢٢

وقد قام عبدالرحمن كتخدا فى سنة ١١٧٦ هـ / ١٧٦٢ م بهدم هذه المدرسة وأقام مسجدا بدلا منها ، ثم قام الخديوى توفيق بعد ذلك بتجديد المسجد وأقام عليه مئذنه على غرار المآذن المملوكية الجركسية سنة ١٣١٠ م / ١٨٩٢ م على ما هو عليه الآن .

على مبارك : المرجع السابق ص ٥٦ – ٥٩

(٣) إبن إياس : المصدر السابق حـ ١ ص ٢٦٤

(٤) ابن بطوطة : الرحلة ص ٣٥ .

(٥) نفس المصدر ص ٣٥ .

ومكسية بالواح الرصاص [١] يعلوها قائم معدنى بنهايته هلال نحاسى ومركب (عشارى) ، ولعلها أقدم قبة خشبية بمصر . وقد كسيت جدران القبة من الداخل بالرخام الملون ، ويصدرها ثلاثة محاريب ذات طواقى خشبية (شكل ٣) ، ثم محراب رابع بالركن الجنوبى الشرقى للقبة لتصويب إتجاه القبلة ، وهو من تجديدات السلطان قايتباى على يد مهندسه شمس الدين بن الزمن سنة ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م [٢] كما هو ثابت بالنص التأسيسى أعلى هذا المحراب وبالجدار الغربى للقبة . وبالضلع الشرقى من القبة بالداخل جهة الشمال فتحة شباك بجلسته منزل الفسقية . أما الضلع الشمالى فيتوسطة فتحة شباك عميقة ، سقفت جلسته بقصع (حقاق) خشبية ، ونقش على عتب هذا الشباك من الخارج النص التأسيسى لبناء هذه القبة ، ويتكون من سطرين بخط النسخ ونصه « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه القبة المباركة مولانا السلطان العادل ابى بكر بن أيوب خليل أمير المؤمنين خلد الله ملكه وذلك فى يوم الأحد السبع خلون من جمادى الأول سنة ثمان وستماية » . وكان أصل هذا الشباك الباب الرئيسى للقبة، أما المدخل الحالى للقبة يقع بنهاية الضلع الشرقى من جهة الجنوب (شكل ٤) .

ويتوسط أرضية القبة من الداخل أربع تركيبات خشبية (توابيت) أهمهم التركيبة الخشبية الخاصة بالإمام الشافعى ، وهى التى تبقت من عمارة صلاح الدين الأولى لتربة الإمام الشافعى [٣] ، وهى حافلة بالنقوش الكتابية بالخطين النسخى والكوفى ، وتشتمل على حشوات مجمعة على شكل الأطباق النجمية ومنقوشة بزخارف نباتية [٤] ، وتكمن أهميتها بأنها تتضمن نصا تاريخيا على قدر كبير من الأهمية تشتمل على اسم الصانع وتاريخ الإنشاء [٥] ، وقامت لجنة حفظ الآثار العربية بعمل مقصورة نحاسية حولها

---

(١) قام بتجديد هذه القبة بأخشابها والواح الرصاص التى عليها الوالى على بك الكبير سنة ١١٨٦ هـ / ١١٧٢ م كما ورد فى أحداث الجبرتى فى هذه السنة ، انظر :

عبد الرحمن الجبرتى (ت ١٢٣٧ هـ / ١٨٢٢ م) : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار . اربعة اجزاء بولاق ١٢٩٧ هـ . جـ ٤ ص ٣٨٢

(٢) السخاوى (محمد بن عبد الرحمن بن محمد) (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٧ م) : الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ١٢ جزء . مصر ١٣٥٢ – ١٣٥٥ هـ . جـ ٨ ص ٢٦١ ، ابن إياس : بدائع الزهور حـ٣ ، ص ١٧٠ ، ٣٢٩

(٣) بالإضافة إلى هذه التركيبة تبقى من المدرسة الصلاحية النص التأسيسى الخاص بها والباب الخشبى ويحتفظ بهما متحف الفن الإسلامى بالقاهرة .

(٤) زكى محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية . القاهرة ١٩٥٦ م أشكال ٣٧٥ – ٣٧٦

(٥) حسن عبد الوهاب : توقيعات الصناع على آثار مصر الإسلامية . مجلة المجمع العلمى المصرى . المجلد ٣٦ لسنة ١٩٥٣ – ١٩٥٤ م ص ٥٤٦

لحمايتها ، ويتقدم التركيبة شاهد قبر رخامى نقش عليه ستة عشر سطراً تتضمن اسم الإمام الشافعى ونسبه وتاريخ مولده ووفاته [١] (لوحة ٥) .

أما التركيبة الثانية خاصة بأم السلطان الكامل وتشبة التركيبة السابقة ، أما التركيبة الثالثة والرابعة ، فهما خلو من الزخرفة ، أحدهما خاصة بالسلطان الكامل الأيوبى وحولها مقصورة خشبية مطعمة بالصدف ، والأخرى خاصةبأسرة الفقيه عبد الحكم ، التى إستضافت الإمام الشافعى عند قدومه إلى مصر . كما دفن بهذه القبة أيضا من أسرة السلطان صلاح الدين الأيوبى زوجته الملكة شمسة وابنه العزيز [٢] ولكن قبريهما غير محددين .

القرافة :

أشاد الرحالة إبن بطوطة بقرافة القاهرة فقال عنها « ولمصر القرافة العظيمة الشأن والتبرك بها » [٣] . وأستعمل سفح جبل المقطم [٤] وامتداده كقرافة منذ الفتح العربى لمصر وحتى نهاية العصر المملوكى – بل وحتى الآن – وذلك لعدة عوامل منها [٥] : عامل دينى : تكاد تتفق جميع روايات المؤرخين القدامى ، وما نقله عنهم المؤرخين المتأخرين على أن هذا الجبل مقدس ومبارك ، وأن من يدفنون فيه يبعثهم الله يوم القيامة ولا حساب عليهم ، كما أشار إلى هذا السبب أيضا الرحالة إبن بطوطة ، فذكر عن القرافة « لأنها من جملة الجبل المقطم الذى وعد الله أن يكون روضة من رياض الجنة » [٦] .

أما العامل الثانى فهو جغرافى : فإذا نظرنا إلى جغرافية عواصم مصر الإسلامية (الفسطاط – العسكر – القطائع) لا نجد هناك مجال للامتداد العمرانى لهذه العواصم

---

(١) أنظر هذا النص كاملا فى حسن عبد الوهاب : المرجع السابق ص ١٠٩

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٦٢

(٣) إبن بطوطة : الرحلة ص ٣٤

والقرافة نسبة إلى بنو قرافة وهم بطن من بطون قبيلة المعافر اليمينية التى شهدت فتح مصر ونزلوا بهذه الخطة بالفسطاط . المقريزى ك الخطط جـ ٢ ص ٤٠٦ ، ٤٤٣ ، ٣٤٥

(٤) عرف جبل المقطم بهذا الأسم نظرا لأنه مقطوم اى مقطوع بمعنى أن أجزائه غير مرتبطة أو متصلة ببعضها البعض . محمد حمزة : قرافة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك . رسالة ماجستير (غير منشورة) كلية الأثار جامعة القاهرة ١٩٨٦ م . ص ١٦

(٥) محمد حمزه : المرجع نفسه ص ١٨ – ٢٣

(٦) إبن بطوطة : الرحلة ص ٣٤

(خريطة ٤) إلا فى الجهة الشمالية الشرقية ، أما الجهة الشرقية فقد أحال جبل المقطم الامتداد جهة الشرق ، فأكتفى المسلمون ببناء مقابر موتاهم فى سفح هذا الجبل ، بالإضافة إلى أن سفح هذا الجبل يبعد عن نهر النيل فى الغرب ، وبالتالى يرتفع مستواه فوق مياه الفيضان ، ومن تأثير الرطوبة والرشح مما يجعل أرض هذا السطح جافة وصالحة لدفن الموتى ، كما ساعد أرتفاع جبل المقطم على مستوى نهر النيل على جفاف هوائه .

ولم يقتصر استخدام القرافة على دفن الموتى وتشييد المقابر فحسب ، بل شهدت نشاطا عمرانيا ، فأقيم بها منشآت معمارية متعددة الأغراض ، ووصلت إلى قمة أزدهارها فى عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، الذى يعتبر رائد حركة الإنشاء والتعمير فى مصر ، فشمل العمران فى القرافتين الكبرى والصغرى ، وتسارع الأمراء فى تشييد منشأتهم بها . وشاهد إبن بطوطة هذا التسارع والمنافسة فى تشييد العمائر بالقرافة ، فقال عنها « وهم يبنون بالقرافة القباب الحسنة ، ويجعلون عليها الحيطان ، فتكون كالدور ويبنون بها البيوت ، ويرتبون القراء يقرأون ليلا ونهارا بالأصوات الحسان ، ومنهم من يبنى الزاوية والمدرسة إلى جانب التربة » [١] .

وتتفق رواية الرحالة إبن بطوطة مع رواية المقريزى التى أوردها فى خططه حيث يقول « رغب كثير من الناس فى سكناها لعظم القصور التى أنشئت بها وسميت بالترب ولكثرة تعاهد أصحاب الترب لها وتواتر صدقاتهم وميسراتهم لأهل القرافة »[٢] .

ويقصد بلفظة « التربة » التى وردت فى كل من رحلة إبن بطوطة وخطط المقريزى المنشأة التى تحتوى على أكثر من وحدة معمارية من بينها المدفن ذى القبة أو المقبرة ، وكما ورد فى الوثائق والنصوص التأسيسية للترب ، فهى تقوم بوظيفة الخانقاه [٣] (منشأة دينية خاصة بالمتصوفة) .

الأعياد الدينية والقومية :

سار المماليك على نهج سادتهم بنى أيوب فى العناية بالأعياد الدينية والمواسم ، بل استحدثوا فيها ، وأضافوا إليها ، وشجعهم على ذلك وفرة المال والثروة [٤] ، والأستقرار

---

(١) إبن بطوطة : الرحلة ص ٣٤ – ٣٥

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٤٤ – ٤٤٥

(٣) أنظر : محمد حمزه : المرجع السابق ص ١٥٩ – ١٦٨

(٤) سعيد عاشور : المرجع السابق ص ١٧٦

السياسى والإقتصادى وخاصة فى عصر الناصر محمد بن قلاوون ، فلم يمض شهر من شهور السنة طوال العصر المملوكى دون أن تشهد البلاد عيدا دينيا أو قوميا أو احتفالا سلطانيا ، أو موسما من المواسم التى أشترك فى أحيائها المسلمون والمسيحيون من أهل البلاد .

وشاهد الرحالة إبن بطوطة فى القرن ٨ هـ / ١٤ م أثناء زيارته للقاهرة جانبا من هذه الأحتفالات ، ورسم لنا صورة واضحة لهذه الاحتفالات :

أ - الإحتفالات الدينية :

ومن أهم أحتفالات المسلمين وأعيادهم كانت تتركز حول شهر رمضان وأحياء لياليه ، ثم الاحتفال بعيد الفطر فى نهاية شهر رمضان ، ويأتى بعد ذلك الاحتفال بعيد الأضحى . وعلى مدار السنة الهجرية كانت هناك مواسم ومناسبات دينية حرص المسلمون على إحيائها ، وأتخذ بعضها شكل الاحتفال العام مثل دوران المحمل والمولد النبوى الشريف[١] .

وشاهد الرحالة إبن بطوطة بمصر فى القرن ٨ هـ /١٤ م الاحتفال بشهر رمضان بإستطلاع هلال الشهر الجديد فى مدينة إبيار بالمحلة الكبرى (خريطة ٢) سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦ م ، وأعطى لنا صورة واضحة وصادقة ودقيقة لهذا الإحتفال فقال « ولقيت بإبيار قاضيها عز الدين المليجى الشافعى ، وهو كريم الشمايل كبير القدر ، حضرت عنده مرة يوم الركبة . وهم يسمون ذلك يوم إرتقاب هلال رمضان ، وعادتهم فيه أن يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضى ، ويقف على الباب نقيب المتعممين ، وهو ذو شاره وهيئة حسنة ، فإذا أتى أحد الفقهاء أو الوجوه تلقاه ذلك النقيب ومشى بين يديه قائلا : بسم الله سيدنا فلان الدين ، فيسمع القاضى ومن معه فيقومون له ويجلسه النقيب فى موضع يليق به ، فإذا تكاملوا هناك ركب القاضى وركب من معه أجمعين وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان ، وينتهون إلى موضع مرتفع خارج المدينة ، وهو مرتقب الهلال عندهم ، وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش ، فينزل فيه القاضى ومن معه فيرتقبون الهلال ، ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس ، ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع ويصل الناس مع القاضى إلى داره ثم ينصرفون ، هكذا فعلهم فى كل سنة »[٢] .

(١) قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الإجتماعى عصر سلاطين المماليك ص ٩٤ – ٩٥

(٢) إبن بطوطة :الرحلة ص ٢٦ – ٢٧

ولا شك أن هذه الصورة التى رسمها الرحالة إبن بطوطة لإحتفال الناس برؤية هلال شهر رمضان كانت متكررة فى جميع أنحاء البلاد . وتمدنا المصادر التاريخية بما يؤكد هذا ، وأيضا بعض الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر فى ذلك الحين استرعى إنتباههم أن القاهرة فى شهر رمضان كانت شبح فى الضوء نتيجة الأنوار والمشاعل والشموع والفوانيس فى الطرقات والأسواق وبأيدى الناس [١] .

دوران المحمل :

يحتفل المصريون بموسم الحج فى الاحتفال الذى عرف بإسم « دوران المحمل » . والجدير بالذكر أن سلاطين المماليك قد اهتموا اهتماماً كبيراً بكسوة الكعبة فى إطار حرصهم على الواجهة الدينية ، والظهور بمظهر حماة الحرمين الشريفين [٢] .

وكان يحدث الاحتفال بدوران المحمل فى العصر المملوكى مرتين فى السنة : الأولى فى شهر رجب والثانية فى شهر شوال [٣] . وشاهد الرحالة إبن بطوطة أثناء زيارته لمصر فى القرن ٨ هـ / ١٤ م الدورة الأولى التى أطلق عليها « دوران المحمل الرجبى » [٤] . وقد ذكر إبن بطوطة الغرض من تدوير المحمل فى هذا الوقت المبكر حتى « تهيج العزمات ، وتبعث الأشواق ، وتتحرك البواعث ، ويلقى الله تعالى العزيمة على الحج فى قلب من يشاء من عباده ، فيأخذون فى التأهب لذلك والاستعداد » [٥] ، بالإضافة إلى أن إعلام للناس أن الطريق من مصر إلى الحجاز آمن ، وأن من شاء الحج فلا يتأخر ولا يتخوف من الطريق [٦] .

وأعطى لنار الرحالة إبن بطوطة صورة واضحة لهذا الاحتفال فقال : « وهو يوم دوران المحمل ، يوم مشهود ، وكيفية ترتيبهم فيه أنه يركب فيه القضاة الأربعة ، ووكيل بيت المال والمحتسب ، وقد ذكرنا جميعه ، ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة ،

---

(١) سعيد عاشور : المرجع السابق ص ١٨٥

(٢) قاسم عبده قاسم : المرجع السابق ص ٥٩

(٣) القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) : صبح الأعشى فى صناعة الأنشاء ١٤ جزء القاهرة ١٩١٩ – ١٩٢٢ م . جـ ٤ ص ٥٧ – ٥٨

(٤) إبن بطوطة : الرحلة ص ٤٢

(٥) نفس المصدر ص ٤٣

(٦) سعيد عاشور : المرجع السابق ص ١٨١

ويقصدون جميعا باب القلعة ، دار الملك الناصر ، فيخرج إليهم المحمل على جمل وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز فى تلك السنة ، ومعه عسكره ، والسقاءون على جمالهم ، ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ثم يطوفون بالمحمل ، وجميع من ذكرنا معه بمدينة القاهرة ومصر ، والحداه يحدون أمامهم ويكون ذلك فى شهر رجب » (١) .

ب - الاحتفالات القومية :

تتسم الاحتفالات القومية فى عصر سلاطين المماليك إلى ثلاثة أقسام هى : منها ما هو مرتبط بشخص السلطان كالاحتفال بتوليته أو شفائه من مرض ألم به أو عودته من سفر أو حرب ، والثانى ما هو مرتبط بالنيل والاحتفال بوفائه ، والثالث يشمل الأعياد التى كانت فى أصلها خاصة بأهل الذمة (٢) .

وشهد الرحالة إبن بطوطة أحد هذه الاحتفالات أثناء زيارته لمصر فى القرن ٨ هـ/١٤م، وهو الأحتفال الذى أقامة أهل القاهرة لشفاء السلطان الناصر محمد بن قلاوون بمناسبة شفائه من كسر أصاب يده ، ورسم لنا صورة واضحة لهذا الأحتفال فقال « شاهدت بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده فزين كل أهل سوق سوقهم وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلى وثياب الحرير وبقوا على ذلك أياما » (٣) .

وتمدنا المصادر التاريخية بما يؤكد صدق رواية إبن بطوطة السابقة فى حوادث سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م (٤) أن السلطان أثناء خروجة لرحلة صيد فى نواصى قليوب ووقع من على فرسه وأنكسرت يده وذلك يوم الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٧٣٠هـ، وشفيت يده بعد سبعة وثلاثين يوما ، وأضافت هذه المصادر التاريخية أنه جرت العادة فى مثل هذه المناسبات أن توزع الصدقات والأقطاعات ، وأوضحت أيضا كيفية إحتفال الناس

---

(١) إبن بطوطة : الرحلة ص ٤٢

(٢) سعيد عاشور : المرجع السابق ص ١٩٢

(٣) إبن بطوطة : الرحلة ص ٣٢

(٤) إبن إيبك الدوادارى (أبى بكر بن عبد الله) : كنز الدور وجامع الغرر . الجزء التاسع وهو الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر. تحقيق هانس روبرت رويمر القاهرة ١٩٦٠ م ص ٣٥٣ .

- النويرى : نهاية الأرب ج ٣١ ص ١٠٣

- المقريزى (أحمد بن على) (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك . نشر محمد مصطفى جـ ٢ ق ٢ القاهرة ١٩٤٢ م ص ٣١٧ - ٣١٨

بشفاء السلطان ، ويتطابق هذا مع ما ورد فى رحلة إبن بطوطة ، فيذكر المقريزى [١] « ثم عوفى السلطان ، فزينت القاهرة ومصر فى يوم الأحد رابع جمادى الآخرة ، وتفاخر الناس فى الزينة بحيث لم تعهد زينة مثلها ، وأقامت أسبوعا تفنن أهل البلدين فيه بأنواع الترف ونزلت ست حدق فى عدة من الخدام والجوارى حتى رأت الزينة ، وقد أجتمع أرباب الملاهى فى عدة أماكن بجميع آلات المغنى ، هـذا والأفراح بالقلعة وسائر بيوت الأمراء مدة الأسبوع ، ومع هذا فالبشائر من ضرب الكوسات مستمره ، وكذلك طبلخاناه الأمراء فلم يبق أميرا إلا وعمل فى بيته فرحا ، وأنعم السلطان وخلع على كثير من أرباب الوظائف من الأمراء والمماليك والسلطانية ... وكانت هذه الأيام مما يندر وقوعه مثله » .

ثالثا : النشاط الدينى والعلمى :

أ - منشآت الصوفية (الخوانق والأربطة والزوايا) :

توضح لنا رحلة إبن بطوطة جانبا هاما من جوانب ملامح العصر الذى عاش فيه وهو القرن ٨ هـ / ١٤ م ، وهو عصر الأولياء وأصحاب الكرامات والطرق الصوفية وشيوخها ، وهذا يتضح من مدى حرص إبن بطوطة الشديد طوال رحلته بلقاء الأولياء والعلماء والشيوخ الصوفية وأصحاب الكرامات ، وهو يؤمن إيمانا شديدا بأولئك الأولياء ، ويعطينا الأدلة على صدق ولايتهم . وأستجابة الله سبحانه وتعالى لشفاعتهم [٢] .

وظاهرة الأولياء وأصحاب الكرامات والطرق الصوفية وغيرها ظاهرة طبيعية ، فقد أدت غزوات المغول فى المشرق الإسلامى والتى أدت إلى سقوط الخلافة العباسية ، وأيضا فى الغرب الإسلامى كانت الدولة الإسلامية تلفظ أنفاسها الأخيره إلى أن سقطت غرناطة أخر القواعد الإسلامية فى الأندلس ، كل هذه العوامل أدت إلى هجرة مشايخ الصوفية إلى أقطار إسلامية لم تشهد إقامة منشآت دينية خاصة بالمتصوفة ، وأيضا حيث الأمن والأمان والأستقرار ، ومن بين هذه الأقطار الإسلامية مصر ، حيث تمتع بها الصوفية بمزايا عديدة من إقامة ومأكل وملبس مقابل إنقطاعهم للعبادة ، وسارع كثير من المصريين إلى الدخول تحت لواء مشايخ الصوفية ، وأصبح لهم مريدين [٣] .

---

(١) المقريزى : المصدر السابق جـ ٢ ق ٢ ص ٣١٨

(٢) حسين مؤنس : المرجع السابق ص ٢٦

(٣) دولت عبد الله : معاهد تزكية النفوس فى مصر . القاهرة ١٩٨٠م . ص ٣٧ – ٣٨

ومن أشهر مشايخ الصوفية الذين وفدوا إلى مصر فى القرن ٧ هـ / ١٣ م إبى الحسن الشاذلى [١] ، وجاء معه خاصة أتباعه وعلى رأسهم أبى العباس المرسى ، وأشار إلى هذا الرحالة أبن بطوطة « وأبو العباس المرسى تلميذ ولى الله أبى الحسن الشاذلى الشهير ذى الكرامات الجليلة والمقامات العالية » [٢] . وأصبح له مريدين . وقد لاحظ إبن بطوطة أن تلاوة حزب البحر المنسوب إلى أبى الحسن الشاذلى ، والذى كان يقرأه هو وأصحابه فى كل يوم عند ركوبهم السفينة فى الطريق من ميناء عيذاب إلى جدة منتشرة فى مصر [٣] . ويضيف إبن بطوطة أنه لم يكن قراءته قاصرة على ركوب البحر فقط ، ولكن كان يقرأ داخل المدارس مع أوراد الشاذلى [٤] . وقد حرص إبن بطوطة على زيارة قبر أبى الحسن الشاذلى بحميثرا عندما يؤدى فريضة الحج مارا بالقاهرة ، فقام بزيارتة مرتين [٥] .

وقد تطرف بعض الصوفية فى آرائهم وأفعالهم ، فنشأت عن ذلك طائفة أطلق عليها « المجاذيب أو الدراويش » ، وأشتهروا فى العصر المملوكى بأفعالهم الغريبة التى زعموا أنها من الدين [٦] . وشهد الرحالة إبن بطوطة زاوية لطائفة من هؤلاء الصوفية تعرف بإسم القرندرية (القلندرية) « وهم الذين يحلقون لحاهم وحواجبهم » [٧] .

وشايع سلاطين المماليك وأمراؤهم حركة التصوف بمصر ، ومشاركة عامة الشعب فى الأعتقاد فى الصوفية والعطف عليهم ، فأنشأوا كثيرا من المنشآت التى خصصت للصوفية ، وشاهدها الرحالة إبن جبير فى بلاد الشام وقال عنها « وأما الرباطات التى يسمونها خوانق فكثيره وهى برسم الصوفية » [٨] ، كما شاهدها إبن بطوطة بمصر وقال

---

(١) أنظر ترجمة هذا الشيخ وضريحه فى :
كمال الدين حسين : أبو الحسن الشاذلى . الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٩٢ م .

(٢) إبن بطوطة : الرحلة ص ٢١

(٣) أنظر النص الكامل لهذا الحزب فى رحلة إبن بطوطة ص ٢١ – ٢٢

(٤) نفس المصدر ص ٤٧

(٥) نفس المصدر ص ٤٩ ، كمال الدين حسين : المرجع السابق ص ٦٤ – ٦٦

(٦) سعيد عاشور : المرجع السابق ص ١٦٥ – ١٦٦

(٧) إبن بطوطة :الرحلة ص ٢٩ ويذكر المقريزى أنه كانت لهذه الطائفة زاوية خارج باب النصر بالقاهرة ، ووصف هذه الطائفة وصفا مسهبا. أنظرالمقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٣٢ – ٤٣٣

(٨) إبن جبير : الرحلة ص ٢٥٦

عنها : « وأما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق ، واحدتها خانقة » (١) . وكما يتضح من روايات الرحالة المغاربة أن منشآت الصوفية كان يطلق عليهافى المشرق الإسلامى وفى مصر اسم خانقاه ، أما فى المغرب فكان يطلق عليها رباط أو زاوية (٢) .

وقد وصف إبن بطوطة أمراء السلطان الناصر محمد بمصر فى القرن ٨ هـ / ١٤ م بأنهم « يتنافسون فى أفعال الخيرات وبناء المساجد والزوايا ، وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الأعاجم » (٣) .

وقد أنتشرت بيوت الصوفية وهى الخانقاوات (الزوايا) والأربطة فى معظم أقاليم مصر ، ولم يقتصر على القاهرة ، كما يتضح من خلال رحلة إبن بطوطة ، فأنه لا ينزل بلدا إلا وأوى إلى الزاوية أو الرباط ليقيم به (٤) . كما أشاد بكثرة بعضها فى بعض مدن الوجه القبلى منها على سبيل المثال مدينة أسنا فقال عنها « مدينة عظيمة .. كثيرة الزوايا » (٥) ، ومدينة المنيا « .. وبها المدارس والمشاهد والزوايا » (٦) .

وأوضح لنا إبن بطوطة فى رحلته أن هذه الخانقاوات (الزوايا) كانت تخضع لنظم وتقاليد بداخلها ، فحددت نوعية المنتمين إليها « وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف » (٧) ، كما أوضح إبن بطوطة كيفية دخول الفرد إلى الخانقاه (الزاوية) ، والإنتماء إليها ، وما يقوم به نزلاء الخانقاه من المتصوفة من واجبات ، كما حدد أنواع الطعام المقدم إليهم والتوسعات التى كانت تصرف عليهم (٨) ، كما أوضح أنه لكل خانقاه شيخ وحارس .

---

(١) إبن بطوطة : الرحلة ص ٣٣

وعن الزاوية ومدلولها اللغوى وأنواعها أنظر

على الطايش : دراسة أثرية وثائقية لمسجد الأمير سليمان أفندى ميسو . مجلة التاريخ والمستقبل قسم التاريخ . كلية الآداب جامعة المنيا المجلد الثانى العدد الثانى ١٩٩٢ م ص ١٦٤

(٢) أوضحت الوثائق المملوكية أن هناك فوارق قليلة بين الخانقاه والرباط والزاوية . عن هذه الفوارق أنظر : محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الإجتماعية فى مصر (٦٤٨- ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م) دراسة تاريخية وثائقية . الطبعة الأولى القاهرة ١٩٨٠م ص ٢٠٨ - ٢٢٢

(٣) إبن بطوطة : الرحلة ص ٤٠

(٤) إبن بطوطة : الرحلة ص ٢٥ ، ٢٧ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩

(٥) نفس المصدر ص ٤٨

(٦) نفس المصدر ص ٤٤

(٧) نفس المصدر ص ٣٣

(٨) نفس المصدر ص ٣٣ - ٣٤

ومن منشآت الصوفية التى أشاد بها الرحالة إبن بطوطة خانقاه الناصر محمد بن قلاوون فى سرياقوس ، ورباط الأثار بمصر القديمة .

خانقاه الناصر محمد بسرياقوس :

من الملاحظ أن معظم من شيد الخوانق فى العصر المملوكى البحرى بمصر هم أمراء السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وقد أشار إبن بطوطة إلى ذلك ، ولم يسهم من سلاطين المماليك البحرية فى بناء الخوانق إلا السلطان الناصر محمد ، فقد شيد خانقاته خارج القاهرة بمدينة سرياقوس [١] . وقد أفتتن وأعجب بها إبن بطوطة فذكر عنها « وبنى زاوية عظيمة بسريا قص خارج القاهرة .. لا نظير لها فى المعمور فى أتقان الوضع وحسن البناء والنقش والجص بحيث لا يقدر أهل المشرق على مثله » [٢]

وكان سبب إنشائها أن السلطان الناصر محمد ركب كعادته للصيد ، وبينما هو فى الطريق إنتابه ألم شديد كاد يقضى عليه ، فنزل عن فرسه ، ولكن الألم تزايد عليه ، فنذر أن عافاه الله أن يبنى فى هذا الموضع مكانا يتعبد الناس فيه لله تعالى ولما عاد إلى قلعة الجبل وشفى من مرضه ، سار بنفسه إلى الموضع وصحب جماعة من المهندسين ، وأختط هذه الخانقاه فى سلخ ذى الحجة سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م [٣] وأنتهى من بنائها فى ٧ جمادى الأخر سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م [٤] ، ورتب فيها شيخا ومائة صوفى لكل منهم الخبز واللحم والطعام والحلوى وسائر ما يحتاج إليه ، وبنى بجانبها مسجدا تقام به الجمعة، والحق بها حماما ومطبخا [٥] وقد أحتفل السلطان بإفتتاحها ، وحرر لها وثيقتين وقف [٦] .

---

(١) إبن بطوطة : الرحلة ص ٣٩

(٢) نفس المصدر ص ٣٩

(٣) إبن إيبك الدوادارى : كنز الدرر ص ٣١٣

(٤) إبن حبيب (الحسن بن عمر) (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) : تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه . تحقيق محمد أمين . ثلاثة أجزاء القاهرة ١٩٧٦ - ١٩٨٦ م جـ ٢ ص ٢٤٩

الشجاعى (شمس الدين) تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده . حققه وترجمة إلى الألمانية بربارة فنستر . فيسبادن ١٩٧٨ م ص ١٧٧ ، المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٢٢

وقد أجمع المؤرخون على تاريخ الإنتهاء من هذه الخانقاه السابق (٧٢٥ هـ) ما عدا المؤرخ إبن تغرى بردى الذى ذكر تاريخا مخالفا وهو ٢٨ ربيع الآخر سنة ٧٤٠ . أنظر إبن تغرى بردى : النجوم جـ ٩ ص ١٤٤

(٥) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٢٢ ، إبن تغرى بردى : النجوم جـ ٩ ص ١٨٢

(٦) أنظر نص هذه الوثائق فى إبن حبيب : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٠١ - ٤٤٨

رباط الآثار :

المعروف بأثر النبى بمصر القديمة (مسجد أثر النبى) (١٠٧٣ -١٢٢٤ هـ/١٦٦٢-١٨٠٩ م [١] أثر رقم ٣٢٠) وقد شيد هذا الرباط الوزير الصاحب تاج الدين محمد بن الصاحب فخر الدين محمد بن الوزير الصاحب بهاء الدين على بن سليم بن حنا وتوفى سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧ م وهى السنة التى بدأ فيها بناء الرباط [٢] ، وأوصى أن يكمل من ريع بستان المعشوق الموقف عليها والمجاور له فاكمله إبن الصاحب ناصر الدين [٣] .

ويشتمل هذا الرباط على خزانة بها بعض من الآثار النبوية أشتراها الصاحب تاج الدين بمبلغ مائتى وخمسين ألف درهم ، وهى عبارة عن قطعة من العنزة وقطعة من القصعة ومرود وملقط ومخصف [٤] . ولما زار إبن بطوطة هذا الرباط أثناء سفره من مصر على طريق الصعد برسم الحجاز ، سجل مشاهداته عنه ، ووصف الآثار النبوية وزادعليها بعض أثار « .. وهو رباط عظيم ، بناه على مفاخر عظيمة وأثار كريمة أودعها فيه ، وهى قطعة من قصعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والميل الذى كان يكتحل به ، والدرفش وهو الأشفاء (أى المسله أو الأبرة الكبيرة) الذى كان يخصف به نعله ، ومصحف أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى بخط يده ، رضى الله عنه » [٥] . وقد حدد إبن بطوطة

---

(١) ترجع عمارة هذا الرباط حالياً إلى العمارتين اللتين قاما بهما كل من إبراهيم باشا الدفتردار المتولى على مصر فى العصر العثمانى سنة ١٠٧١ هـ / ١٦٦٠ م وبناه على الطراز العثمانى وغشى جدرانه ببلاطات القاشانى ومازالت موجودة ، والعمارة الثانية ذكرها لنا الجبرتى فى حوادث ١٨ رجب سنة ١٢٢٤ هـ والتى قام الخواجه محمود حسن بزرجان باشا فعمر المسجد المعروف بالأثار النبوية على وضعها القديم ، ولم يبق من الرباط الآن سوى ذلك المسجد المجدد (مسجد أثر النبى) . أنظر .

سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون . جـ ١ القاهرة ١٩٧١ م ص ٤١٦

الجبرتى : عجائب الأثار . جـ ٤ ص ٩٩ ، محمد سيف النصر المرجع السابق ص ٣٧١

(٢) حسن قاسم : المزارات المصرية والآثار الإسلامية فى مصر والقاهرة المعزية . ستة أجزاء القاهرة ١٩٤٢ م جـ ٦ ص ٦١

(٣) إبن دقماق : المصدر السابق جـ ٤ ص ١٠٣

(٤) نفس المصدر جـ ٤ ص ١٠٣

(٥) إبن بطوطة : الرحلة ص ٤٣

نقل هذه الآثار النبوية الشريفة السلطان الغورى سنة ٩١٠ هـ إلى قبته التى أنشأها بالقاهرة ، ثم نقلت بعد ذلك سنة ١٢٧٥ هـ / ١٨٥٨ م إلى المشهد الزينبى ، ثم إلى القلعة ، ثم أمر بعد ذلك الخديوى توفيق باشا بنقلها إلى المشهد الحسينى سنة ١٣٠٥ هـ / ١٨٨٨ م فى أحتفال مهيب ، وفى سنة ١٣١١ هـ / ١٨٩٣ م بنى لها حجرة خصيصا لها بهذا المشهد . أنظر : أحمد تيمور باشا : الآثار النبوية . الطبعة الثالثة . القاهرة ١٩٧١ م . ص ٤٣ - ٥٠

سعاد ماهر : مخلفات الرسول فى المسجد الحسينى . القاهرة ١٩٨٩ م ص ٦٩ - ٧٣

الغرض من بناء هذا الرباط » وبنى الرباط وجعل فيه للوارد والصادر والجراية لخدام تلك الآثار الشريفة ، نفعه الله تعالى بقصده الكريم » [١] .

ثانيا : المدارس :

ورث المماليك عندسادتهم الأيوبيين نظام المدارس وبناؤها ، كذلك تشجيعهم للعلم والعلماء وحبهم وأقبالهم الشديد على بناء المدارس لأسباب مختلفة منها شخصية واقتصادية وإجتماعية [٢] ، حتى أصبح من المعتاد طوال عصر المماليك أن يكون من آثار السلطان مدرسة أو أكثر ، كما لو كانت هذه المدارس من مظاهر السلطة وشعارها .

كما ساعدت بعض العوامل الخارجية فى الاكثار من بناء المدارس فى هذا العصر مثل غزوات المغول فى المشرق الإسلامى وسقوط آخر القواعد الإسلامية فى الأندلس [٣] – كما سبق القول – كل هذا أدى إلى أن تصبح مصر مركزا لتجمع الكثير من العلماء من معظم البلاد الإسلامية حيث الأمن والطمأنينة والبيئة الملائمة لإستمرارهم فى نشاطهم ، مما دفع الحياة العلمية إلى الإزدهار ، وأن تصبح مصر مركز النشاط العلمى والثقافى فى العالم الإسلامى ، ويتضح هذا من خلال ذكر الرحالة إبن بطوطة لعلماء مصر ، فإذا دققنا النظر فى أسمائهم نجدهم من جميع أنحاء العالم الإسلامى منهم على سبيل المثال لا الحصر : ركن الدين من القوبع التونسى ، وأثير الدين أبو حيان الغرناطى ، وبرهان الدين الصفاقصى ، وقوام الدين الكرمانى ، وشيخ شيوخ القراء بمصر مجد الدين الأقصرائى نسبة إلى أقصرا من بلاد الروم [٤] .

ولم يكن بناء المدارس قاصرا على السلاطين والأمراء فى العصر المملوكى البحرى فقط بل شاركهم كثير من الفئات وخاصة التجار والعلماء وأيضا النساء ، وانفقوا ببذخ فى سبيل أنشاء العديد من المدارس . وبذلك انتشرت المدارس فى العصر المملوكى بكثرة

---

(١) إبن بطوطة : الرحلة ص ٤٣

(٢) عن هذه الأسباب أنظر

عبد الغنى محمود عبد العاطى : التعليم فى مصر زمن الأيوبين والمماليك . القاهرة ١٩٨٤ م ص ١٥١ – ١٥٨

(٣) عبد اللطيف إبراهيم : دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق عصر الغورى . رسالة دكتوراة (غير منشورة) ثلاثة أجزاء . كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٥٦ م . جـ ١ ص ٥٢

(٤) إبن بطوطة : الرحلة ص ٤٢

بالغة ، ويكفى أن نذكر للدلالة على ذلك ما ذكره إبن بطوطة فى رحلته أن المدارس بمصر فى القرن ٨ هـ / ١٤ م « لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها » [١] ، وهذا ما أيده القلقشندى بعد ذلك فى القرن ٩ هـ / ١٥ م من أكابر الأمراء المماليك وغيرهم بنوا من المدارس « ما ملأ الأخطاط وشحنها » [٢] .

ولم يقتصر إنشاء المدارس على القاهرة فقط بل أنتشرت فى معظم البلاد من الإسكندرية فى أقصى الشمال إلى أسوان فى أقصى الجنوب ، وزودت هذه المدارس أيضا بخزانات الكتب من الواقفين ، وهـذا يتضح من خلال رحلة إبن بطوطة للقاهرة فى القرن ٨ هـ / ١٤ .

فمن مدن الوجة البحرى (خريطة ٢) التى زارها إبن بطوطة ووجد بها مدارس مدينة دمياط وقال عنها « وكان بدمياط أيام إقامتى بها وال يعرف بالمحسنى من ذوى الأحسان والفضل ، بنى مدرسة على شاطىء النيل بها كان نزولى فى تلك الأيام » [٣] .

ومن مدن الوجه القبلى التى زارها إبن بطوطة (خريطة ٣) ووجد بها المدارس ، مدينة المنيا وقال عنها « .. وبها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد » [٤] ، وأيضا بأخميم بأسيوط « وكان بأخميم رجل طيب يعرب بالخطيب أمر بهدم بعض هذه البرابى (المعابد) وأبتنى بمجارتها مدرسة وهو رجل موسر يعرف باليسار » [٥] ، وبمدينة هو أيضا « وسافرت من أخميم إلى مدينة هو ، مدينة كبيرة بساحل النيل ، نزلت فيها بمدرسة تقى الدين بن السراج ، ورأيتهم يقرءون بها فى كل يوم بعد صلاة الصبح حزبا من القرآن ثم يقرأون أوراد الشيخ أ بى الحسن الشاذلى وحزب البحر » [٦] ، ومدينة قنا [٧] . وأيضا مدينة قوص

---

(١) إبن بطوطة : الرحلة ص ٣٣

(٢) القلقشندى : المصدر السابق حـ ٣ ص ٣٦٨ إبن ظهيرة (من علماء القرن ٩ هـ / ١٥ م) : الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة . تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس . دار الكتب المصرية ١٩٦٩ م . ص ١٨٨ ، ٠١٩١

(٣) إبن بطوطة : الرحلة ص ٣٠

(٤) إبن بطوطة : الرحلة ص ٤٤ ، أنظر أيضا إبن دقماق : المصدر السابق جـ ٥ ص ٢٢

(٥) إبن بطوطة : الرحلة ص ٤٧

(٦) نفس المصدر ص ٤٧

(٧) نفس المصدر ص ٤٨

« .. وبها المدارس الأثيرة » [١] ، أما مدينة أسنا فقال عنها إبن بطوطة أنها « كثيرة الزوايا والمدارس والجوامع » [٢] .

وهكذا يتضح من خلال رحلة إبن بطوطة وزيارته لمدن الوجه القبلى أن بعدها عن العاصمة لم يمنعها من المشاركة فى النهضة العلمية التى عاشتها مصر فى العصر المملوكى البحرى ، بل على العكس من ذلك كان دافعا ومشجعا لإنشاء الكثير من المدارس .

ولم يقتصر ترتيب الدروس فى مصر المملوكية على المدارس فقط ، فقد أحتفظت بعض المساجد الجامعة التى بنيت قبل العصر المملوكى - والتى رتبت بها الدروس - بشهرتها العلمية ، ومن أشهر هذه الجوامع جامع عمرو بن العاص (٢١ هـ / ٦٤١ م أثر رقم ٣١٩) بمصر القديمة [٣] (لوحة ٦) .

ويرجع الفضل فى إحتفاظ هذه المساجد الجامعة الكبرى بشهرتها العلمية إلى عاملين رئيسيين هما : الأوقاف ، وأن ترتيب الدروس بها تكون عادة من قبل السلاطين والأمراء والوقف عليها [٤] .

---

(١) إبن بطوطة : الرحلة ص ٤٨

(٢) نفس المصدر ص ٤٨

(٣) عرف بعدة تسميات منها جامع عمرو ، الجامع العتيق ، مسجد أهل الراية ، تاج الجوامع ، وجامع النصر ، شيده عمرو بن العاص سنة ٢١ هـ / ٦٤١ م بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب ، وكان فى بدايته بسيطا ، ثم تداولته الأيدى بالإصلاح والتجديد كان أخرها ما قام به الوالى مراد بك فى العصر العثمانى سنة ١٢١٢ هـ / ١٧٩٨ م . أنظر :

محمود أحمد : جامع عمرو بن العاص بالفسطاط من الناحيتين التاريخية والأثرية . مصر ١٩٣٨ م .

حسن الباشا : مدخل إلى الأثار الإسلامية . القاهرة ١٩٩٠ م ص ٥٠ - ٥١

مصطفى شيحه: الأثار الإسلامية فى مصر من الفتح العربى حتى نهاية العصر الأيوبى . القاهرة ١٩٩٢ م . ص ٦٩ - ٧٧

أحمد عبد الرازق : تاريخ مصر وأثارها الإسلامية منذ الفتح العربى حتى نهايةالعصر الفاطمى . القاهرة ١٩٩٣ م ص ٦٨ - ٧٥

(٤) محمد أمين : الأوقاف ص ٢٦٠ كما أحتفظ أيضا كل من جامع إبن طولون و الأزهر والحاكم بالقاهرة بشهرتهم العلمية أنظر :

المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٦٨ ، ٢٧٨ - ٢٧٩

كما لعب المسجد الجامع ليس فى مصر ولكن فى العالم الإسلامى دوره بصفته مركزا لعبادة المسلمين ، ولعب كذلك دوره فى الحياة السياسية الإسلامية

صلاح البحيرى : عالمية الحضارة الإسلامية ومظاهرها فى الفنون . حوليات كلية الأداب الحولية الثالثة جامعة الكويت ١٩٨٢ م ص ٧٦

وقد أدت الأوقاف إلى استمرار زوايا العلم بهذه المساجد الجامعة ومنها على سبيل المثال زوايا العلم التى وجدت بجامع عمرو بن العاص بالقاهرة ومن أشهرها زاوية الإمام الشافعى ، التى يقال أن الإمام الشافعى درس بها فعرفت به « وعليها أرض بناحية سندبيس ، وقفها السلطان الملك العزيز عثمان بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين [١] . ولذلك ظلت هذه الزاوية حتى زيارة إبن بطوطة للقاهرة فى القرن ٨ هـ / ١٤ م الذى قال عنها « .. وبشرقه (جامع عمرو) الزاوية حيث كان يدرس الإمام أبو عبد الله الشافعى » [٢] ، واستمر التدريس بهذه الزاوية حتى أيام المقريزى (منتصف القرن ٩ هـ / ١٥ م) حيث قال عنها « ولم يزل يتولى تدريسها أعيان الفقهاء وجلة العلماء » [٣] .

وكان للحفريات التى قام بها المرحوم محمود أحمد بالجامع أهمية كبيرة ، فاسفرت عن نتائج عظيمة ، ترتب عليها تخطيط جامع عمرو بن العاص كما كان عليه فى القرن ٨ هـ / ١٤ م – أى إثناء زيادة إبن بطوطة له – وطبقا للوصف الذى أورده إبن دقماق فى كتابه نقلا عن إبن المتوج سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠ م [٤] ، فظهر أنه كان يتكون من صحن أوسط يحيط به أربع ظلات (أروقة) : تتكون كل من الظلة الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية من سبعة أروقة ، أما الظلتان الجانبيتان فتتكون كل منهما من خمس أروقة ، وخمس مأذن ، وثلاثة عشر بابا (شكل رقم ٦) . وقد قامت هيئة الآثار المصرية فى السنوات الأخيرة بتجديده وإعادة بنائه على الأسس القديمة [٥] .

ختاما :

فقد أوضحت لنا رحلة إبن بطوطة فى القرن ٨ هـ / ١٤ م عدة نقاط أهمها :

– أن الفترة الثالثة لحكم السلطان الناصر محمد تميزت بالاستقرار والازدهار ، وأنعكس هذا على حياة المصريين اليومية من خلال اهتمامهم بجوانب التسلية والترفية فى حياتهم بالخروج إلى المتنزهات ، ومن خلال أعيادهم الدينية (مثل رؤية هلال شهر رمضان ، دوران المحمل) والقومية (مثل شفاء السلطان الناصر من كسر أصاب يده)

---

(١) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٢٥٥

(٢) إبن بطوطة : الرحلة ص ٣٣

(٣) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٢٥٥

(٤) إبن دقماق : المصدر السابق جـ ٤ ص ٦٠ – ٦١

(٥) عن الوصف الحالي للجامع أنظر : مصطفي شيحه : المرجع السابق ص ٧٥ – ٧٧

وقد أعطى لنا إبن بطوطة صورة صادقة لهذه الاحتفالات تتطابق مع ماوردت فى المصادر التاريخية المعاصرة .

- أشتهر عصر الناصر محمد بن قلاوون بكثرة المنشآت المعمارية الدينية بصفة عامة والترب بصفة خاصة ، وهى عبارة عن منشأة معمارية تشتمل على أكثر من وحدة معمارية (مسجد أو مدرسة أو زاوية وقصر) ومن بينها المدفن أو القبة ، وتقوم أيضا بوظيفة الخانقاه لأحتوائها على بيوت لسكنى الصوفية ، وأوضح لنا أبن بطوطة أن أمراء الناصر محمد كانوا يتنافسون فى بنائها ، كما أمدنا إبن بطوطة بتفاصيل كاملة ودقيقة للنظم والتقاليد التى كانت تخضع لها الخانقاه من الداخل .

- يتضح من رحلة إبن بطوطة أن مصر كانت فى القرن ٨ هـ / ١٤ م مركزا لتجمع الكثير من العلماء والشيوخ من معظم البلاد الإسلامية حيث الأمن والطمأنينة ، ولذا أصبحت مصر مركزا للنشاط العلمى والثقافى والدينى فى العالم الإسلامى ، وهذا دفع الحياة العلمية إلى الأزدهار ، وأنعكس هذا فى كثرة بناء المدارس بمصر ليست بالقاهرة وبمدن الوجه البحرى ، ولكن شاركتها أيضا مدن الوجه القبلى .

وأخيرا توصى هذه الدراسة بضرورة الاهتمام بنشر وتحقيق كتب الرحالة المسلمين ، وإعادة تحقيق ما نشر منها من قبل ، إعتمادا على النسخ المكتشفة فى أى من المكتبات العربية والإسلامية والأجنبية ، حيث لوحظ وجود تناقض وتضارب بين نسخ الكتاب المتداول للرحالة نفسه .

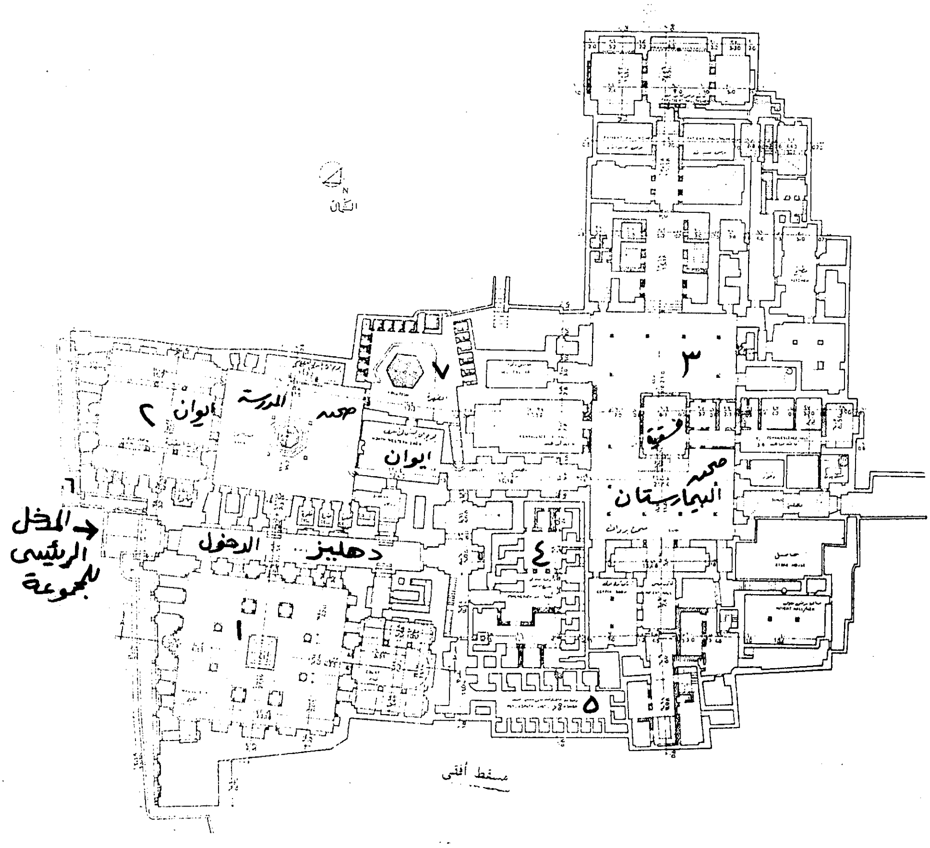

شكل رقم (١)

المسقط الأفقى لمجموعة المنصور قلاوون بين القصرين بالقاهرة

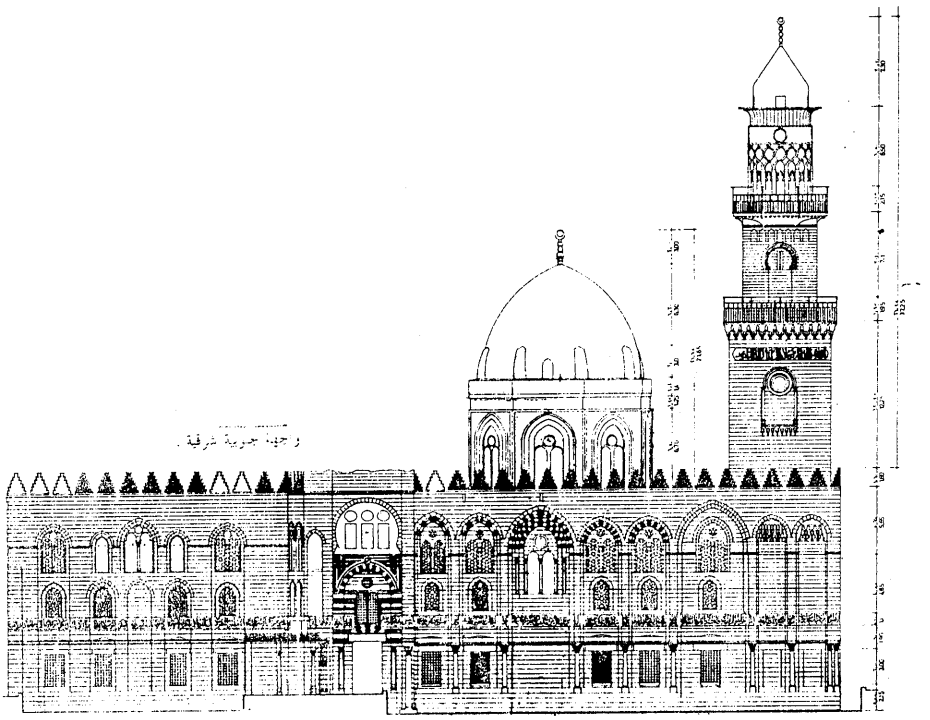

شكل رقم (٢)

الواجهة الجنوبية الشرقية (الرئيسية) لمجموعة المنصور قلاوون

المشرفة على شارع بين القصرين

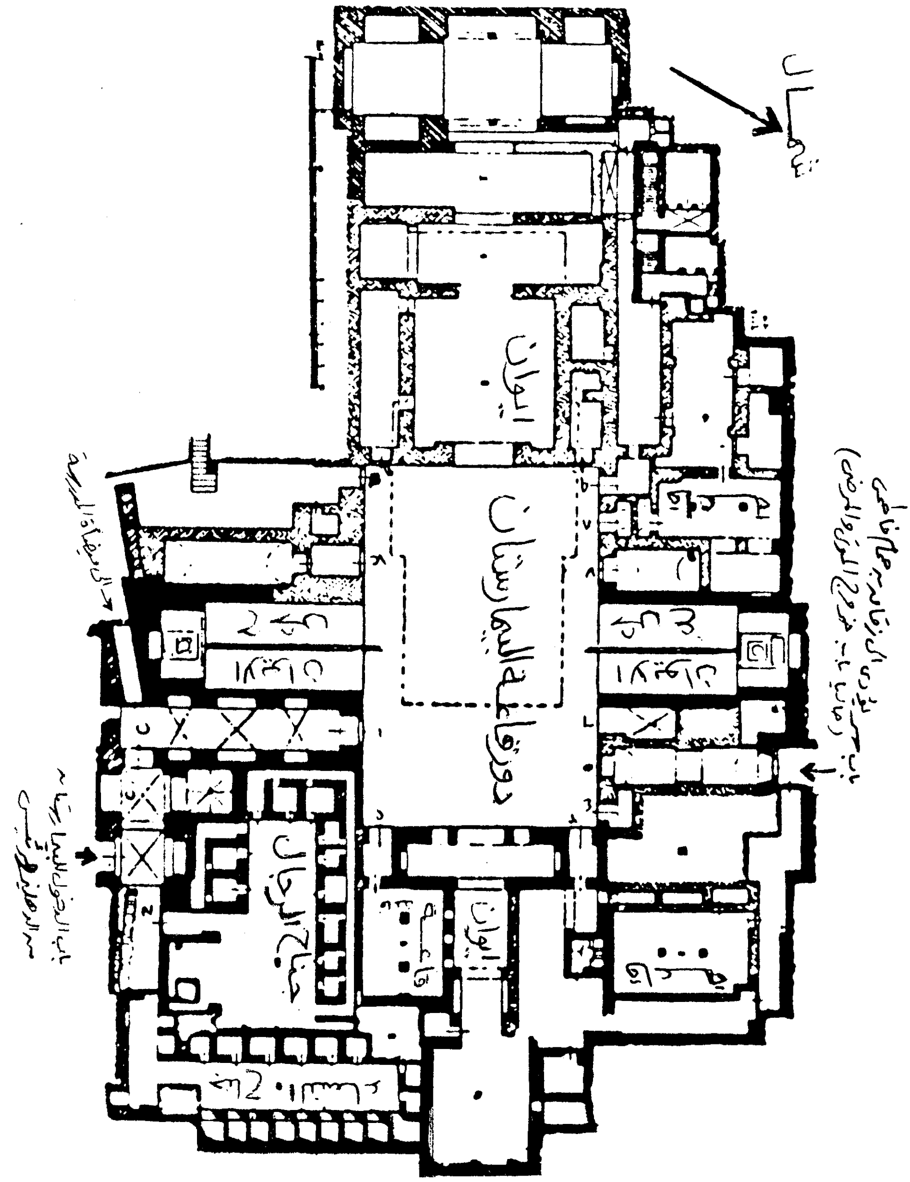

شكل رقم (٣)

المسقط الأفقى لبيمارستان قلاوون (عن كريزويل)

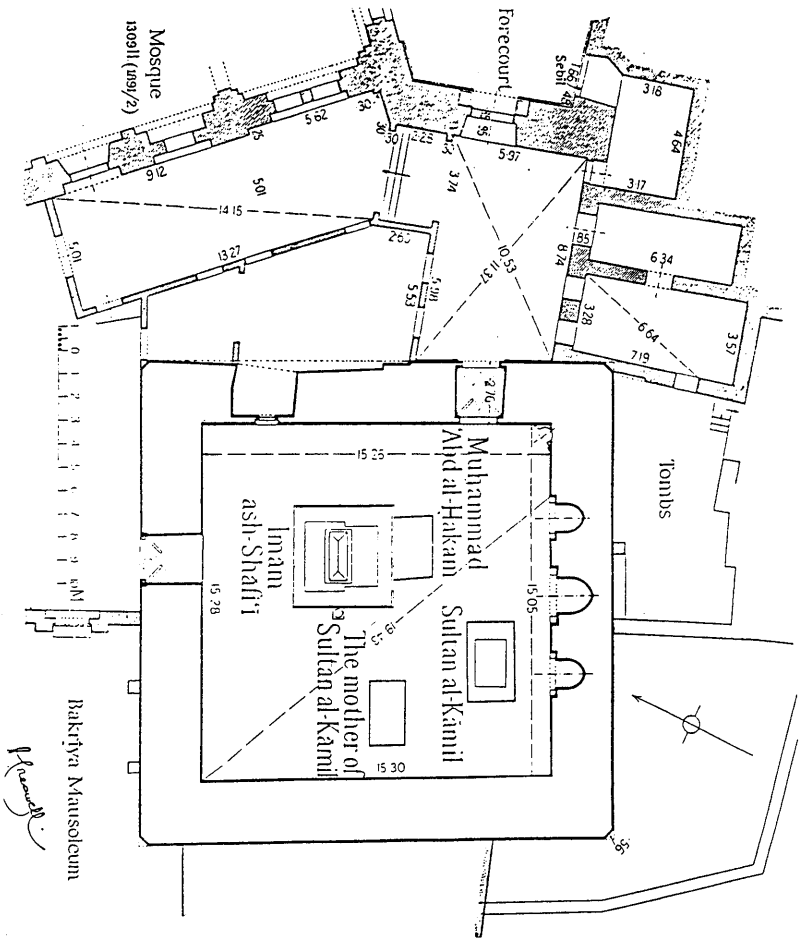

شكل رقم (٤)

المسقط الأفقى لقبة الامام الشافعى (عن كريزويل)

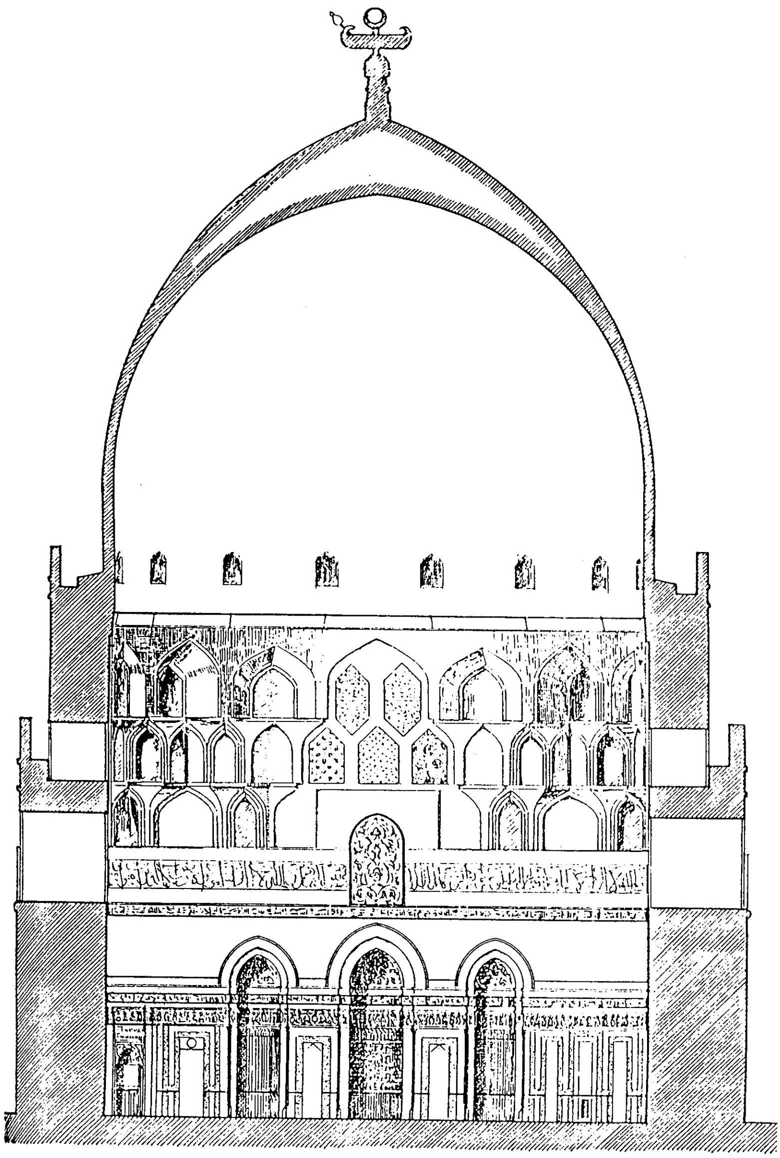

شكل رقم (٥)

قطاع راسى داخل قبة الامام الشافعى (الضلع الجنوبى)

(عن كريزويل)

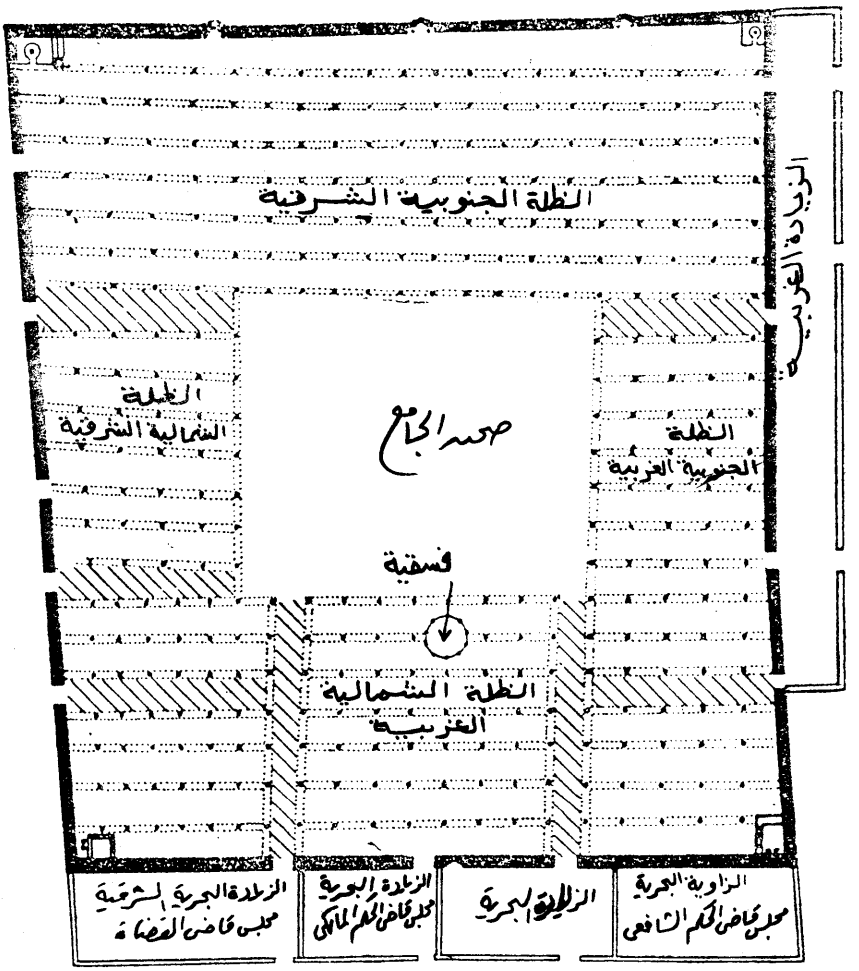

شكل رقم (٦)

المسقط الأفقى لجامع عمرو بن العاص كما وصفه ابن دقماق

فى القرن ٨ هـ / ١٤ م (عن حسن عبد الوهاب)

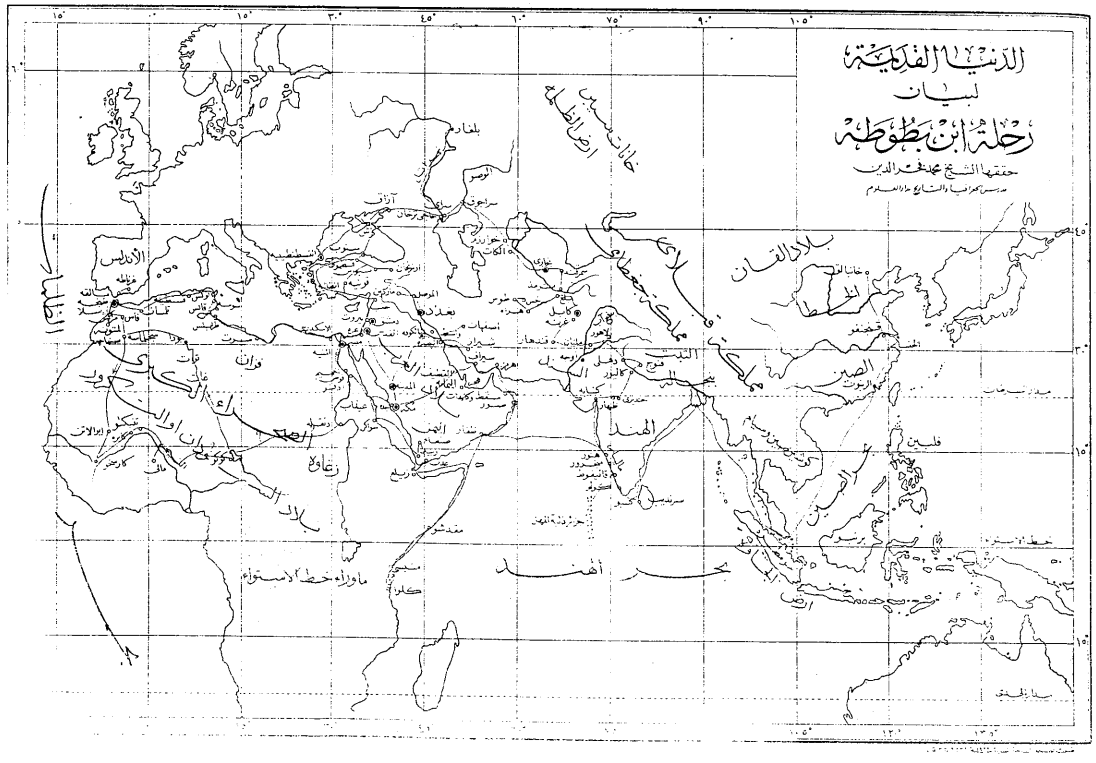

خريطة رقم (١)

توضح البلاد التى مر عليها ابن بطوطة من بداية رحلته من طنجة حتى عودته الى فارس

(عن مهذب رحلة ابن بطوطة)

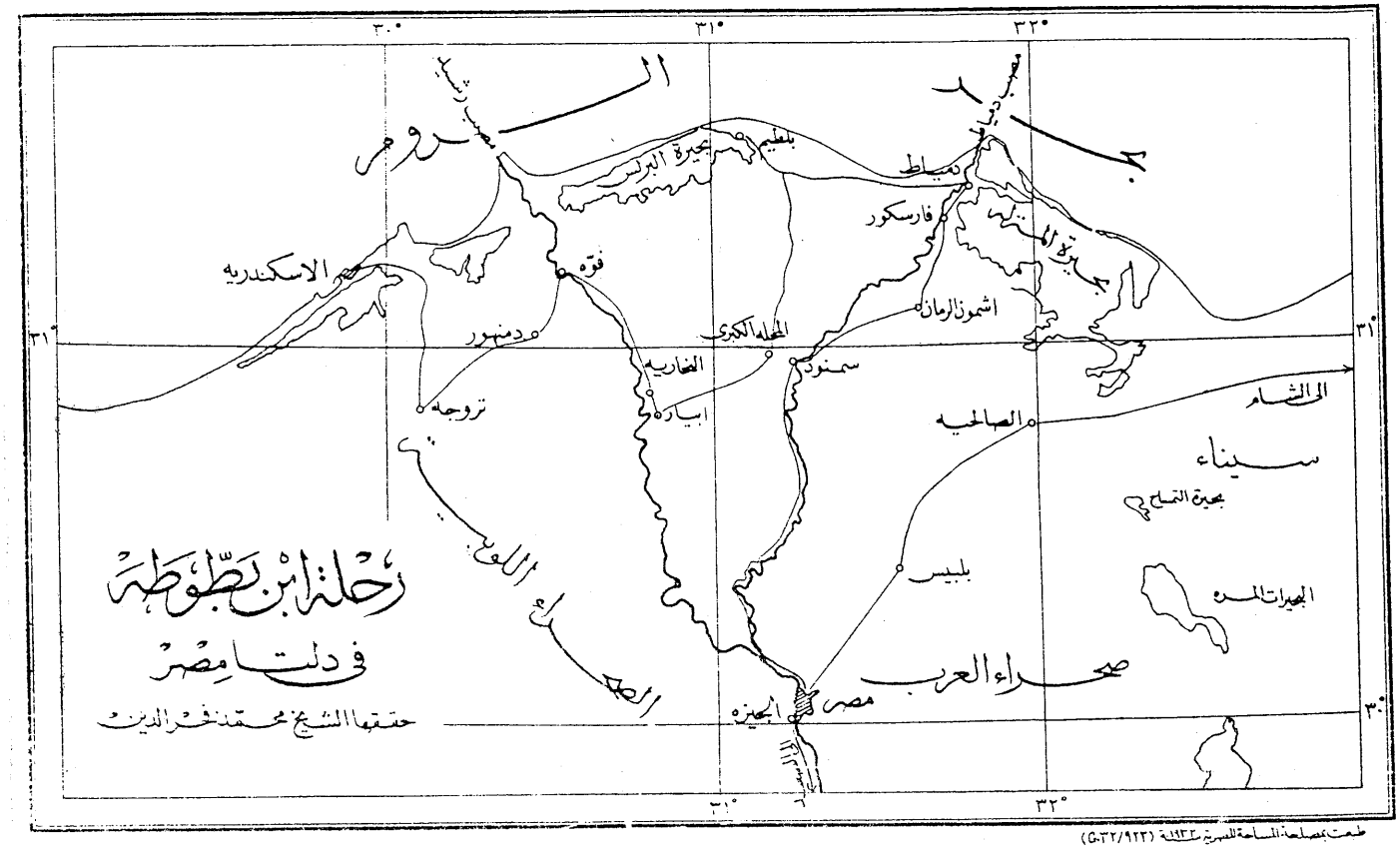

طبعت بمصلحة المساحة للمرة الثانية ١٩٣٣ (٣٢/٩٢٢-٥)

خريطة رقم (٢)

رحلة ابن بطوطة فى دلتا مصر

(عن مهذب رحلة ابن بطوطة)

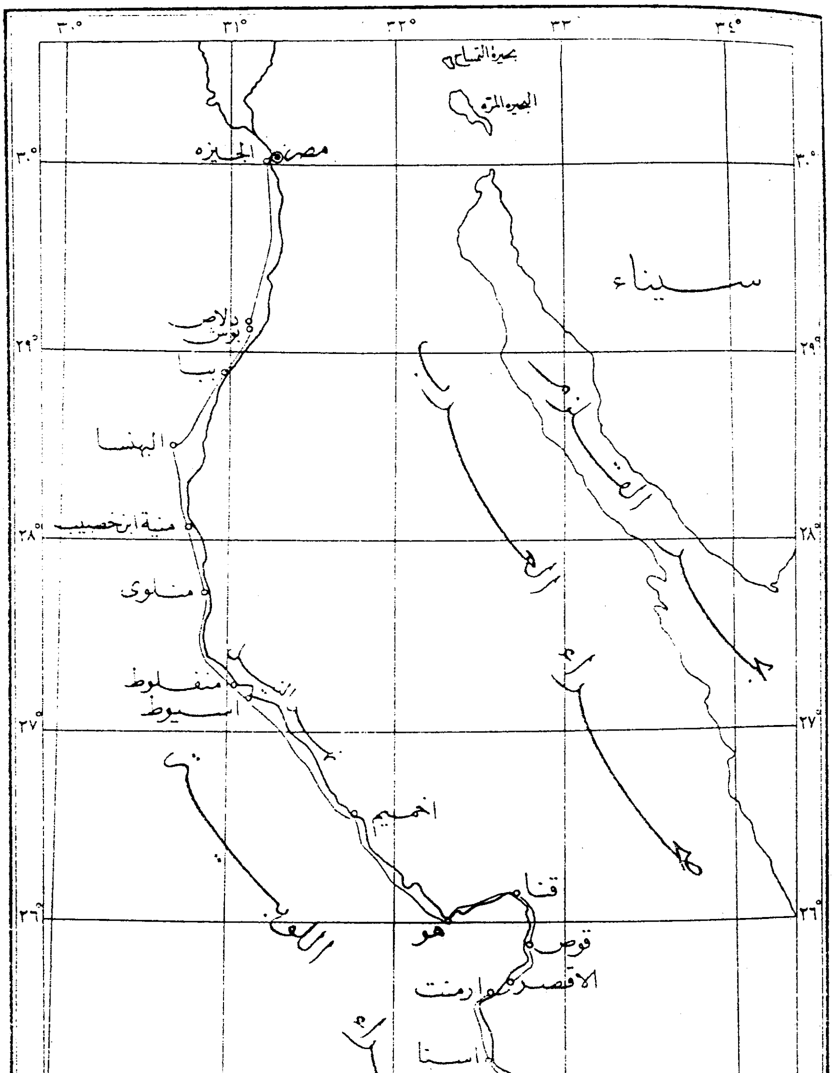

خريطة رقم (٣)

رحلة ابن بطوطة فى صعيد مصر

(عن مهذب رحلة ابن بطوطة)

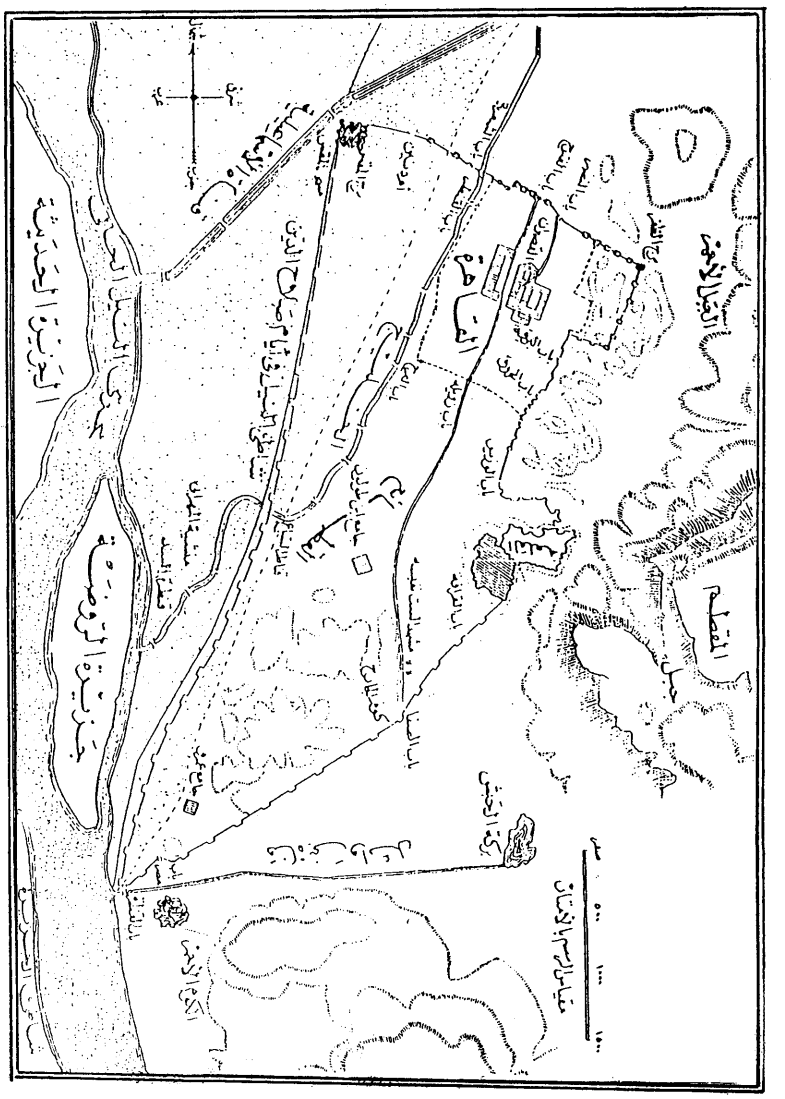

خريطة رقم (٤)

توضح موقع كل من جزيرة الروضة وجبل المقطم

(عن د. عبد العزيز زكى)

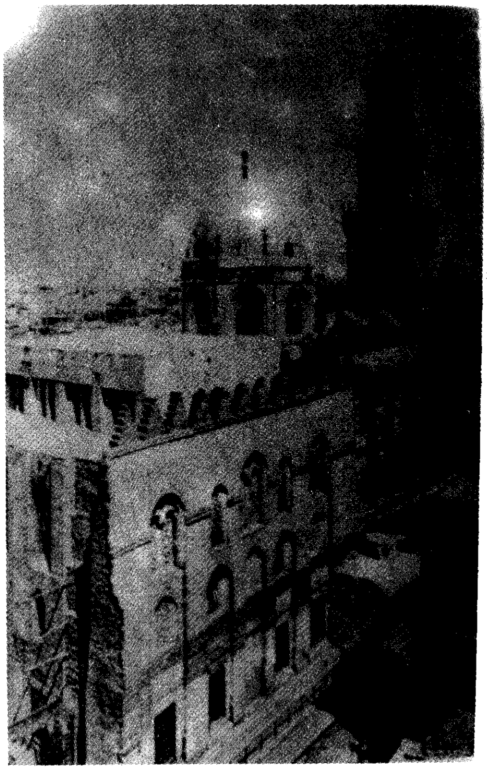

لوحة رقم (١)
مجموعة المنصور قلاوون (الواجهة الرئيسية) ببين القصرين بالقاهرة
(عن كريزويل)

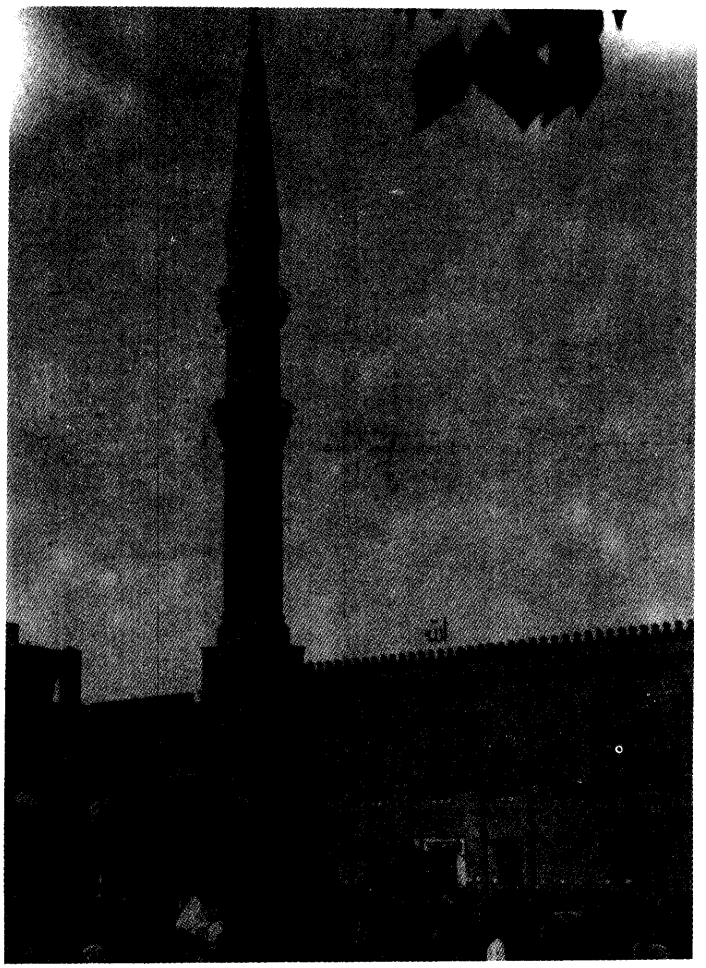

لوحة رقم (٢)
المشهد الحسينى بالقاهرة

لوحة رقم (٣)
المشهد النفيسى بالقاهرة
(عن د. سعاد ماهر)

لوحة رقم (٤)
قبة الامام الشافعى بالقاهرة (الواجهة الشمالية)
(عن كريزويل)

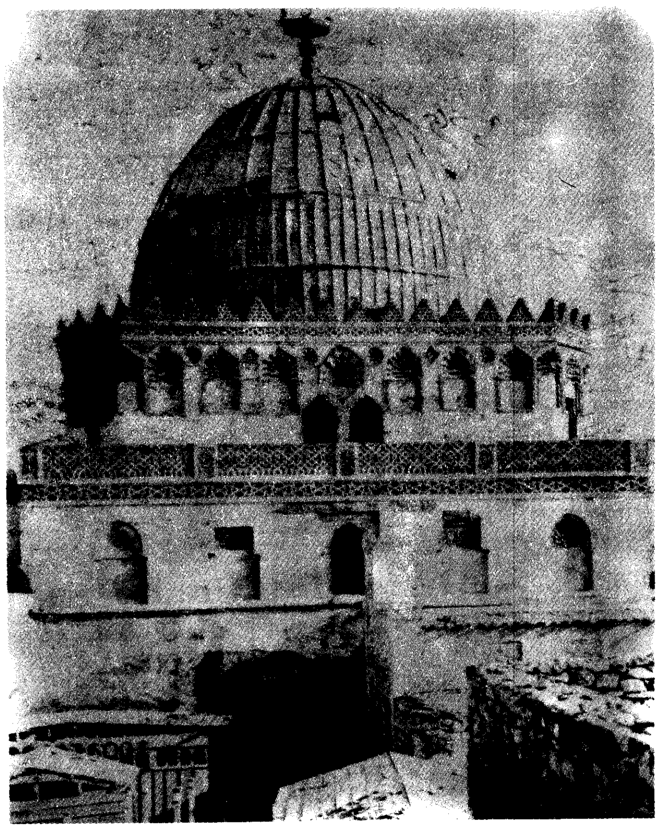

لوحة رقم (٥)
قبة الامام الشافعى من الداخل
(عن كريزويل)

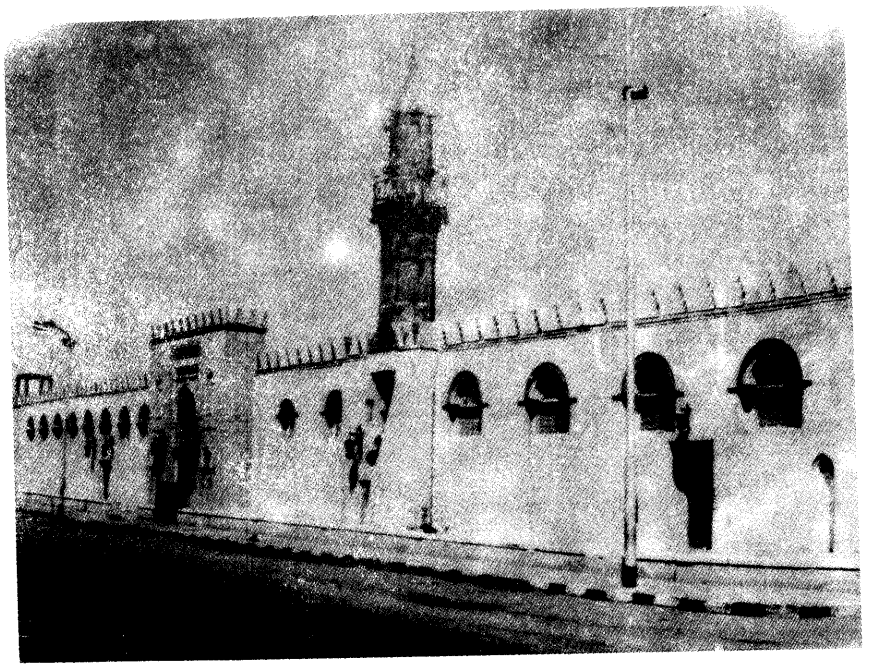

لوحة رقم (٦)
الواجهة الرئيسية لجامع عمرو بن العاص بمصر القديمة
(عن د. سعاد ماهر)